Lundi — 26 — 5 — 1947
15em Année No. 725

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧٢٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ رجب سنة ١٣٦٦ — ٢٦ مايو سنة ١٩٤٧ » السنة الخامسة عشرة

عجائب الشحاذين
وأصحاب الملايين !

للأستاذ عباس محمود العقاد

هذه العجائب وتلك — كلتاهما من عجائب أمريكا .

وهى بلاد العجائب بغير حدود من المكان ولا من طبقات السكان ؛ فإنها لتجود بالعجائب فى الشمال وفى الوسط وفى الجنوب ، وإنها لتجود بها على أيدى « المتسولين » كما تجود بها على أيدى أصحاب الملايين .

وأعجب العجائب حقاً ما جاء من الوسط على رواية بعض الأنباء البرقية . ولا عجب ... فإنك لتستطيع أن تقول « أعجب العجائب الوسط » كما تقول خير الأمور الوسط . فلا تعدو الصواب .

وبلاد المكسيك هى البلاد الوسطى بين الشمال والجنوب فى القارتين الأمريكيتين .

وعجيبتها المروية هى عجيبة الشحاذين ، وهى أعجب ما سمعناه من بلاد العجائب فى هذه الأيام .

روى عن صحيفة « اليونفرسال جرافيكو » المكسيكية أن الشحاذين فى عاصمة المكسيك قد اتفقوا على الحد الأدنى الذى ينبغى أن يقبلوه ليكون لهم عمل مجد على قدر المستطاع . وقرروا أن يرفضوا نصف المليم ولا يمدوا أيديهم إلى مادون خمسة مليمات ، وعليهم أن يرفضوا الصدقة إذا نقصت عن القيمة المقررة على الوجه الذى يرونه بالغاً فى التأنيب والملامة . حسبما يقتضيه الموقف أو يقتضيه الحال » .

هذا هو الخبر العجيب !

وهو ولا شك من « علامات الزمن » كما يقولون . لأننا فى زمن الإدعاء والطلب بالحق وبالباطل : كلٌ يزعم له حقاً وكل يطالب بحق ، حتى من لا عمل له ولا معول له على نفسه . وما من أحد قط يذكر الواجب عليه أو ينظر إلى حقوق الآخرين .

وقد كانت مصر تدعى من قديم الزمن ببلاد العجائب ، أو تدعى على الأصح ببلاد المفارقات .

وكان أهل مصر يقولون على سبيل الإغراب فى الدلالة على التبجح والصفاقة : « حسنة وأنا سيدك ! » ويخيل إليهم أنها غاية الغايات فى الإدعاء وقلة الحياء . ولكنه عصر غابر وعجائب تاريخية وأزمنة متأخرة ... وما هى فى حساب بلاد العجائب على الطراز الحديث إلا من وقائع الصحافة وأخبار كل يوم !

ترى ماذا يكون لو قوبلت هذه « الحقوق » بالرفض والإهمال من فريق « المتعصبين » ؟

أيضرب أصحاب الحقوق ؟

لو فعلوا لكان خطراً جسيماً على المحسنين . لأنهم يبحثون عن أبواب السماء فلا يجدونها ، ويدورون على أبواب الوجاهة

والظاهر فيقال لهم « يحنن » أو «يرزقكم الله » . ودقة بدقة أو بدقات ، وطرقة على الأبواب بطرقة على الأبواب أو بطرقات ! ويكون الجزاء على هذا من جنس العمل ، فى شريعة من لا يعملون!

وإذا صح أن الصدقة باب السماء فقد أصبحت مقاليد السماء إذن فى أيدى «سدنة» العصر الحديث ، وهم أبناء السبيل أو أبناء محراب الطريق :

وكل ما بقى من منافذ الرجاء للمحسنين المساكين أن يكون للسماء أكثر من باب واحد .

فعسىٰ أن يبحث عنه المحسنون موفقين .

وعسى ألا يسبقهم كهان السبيل على الأبواب .

ومتى أصبحت « الشحاذة » على هذا المنوال فلسوف يصبح كل محسن فى العصر الحديث على غرار ذلك المحسن الوحيد الذى قال فيه الشاعر العربى :

تراه إذا ما جئتـــه متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله!

***

تلك هى أعجوبة الشحاذين .

أما أعجوبة أصحاب الملايين فمن محاصيل الشمال فى تلك البلاد التى فاضت بجميع أنواع المحاصيل .

وأما بطلها العجيب فهو رجل يدعى « البرت لايت » باع مصانعه وقصوره وسياراته وقبع هو وزوجته فى خمس حجرات مزرية فى أقليم فلادلفيا ... وقال لمن سألوه : ولم اكتفيت بهذه الحجرات الخمس وهى من مساكن أصحاب الكفاف ؟

فقال : إنها جهد ما تستطيع الزوجة العاملة أن تتولاه بالخدمة والرعاية ، وهى مع ذلك كافية لمأواه ومأوى ذويه الأقربين .

لو كان هذا الرجل فى الشرق لحجروا عليه ، واتهموه بالجنون المطبق ولم يكن قصاراه من التهمة أنه مخلوق عجيب .

على أنه فى الحق عجيب بين الناس لأنه نادر المثال بينهم ، لا لأنه غير مفهوم أو لأنه منحرف عن منهاج العقل السليم .

فالعقل كل العقل ما صنع وحده :

والعجب كل العجب ما يصنعه جميع الناس فى كل مكان .

لأن الناس لا يعجبون لرجل يودع عشرين مليوناً من الذهب فى مصرف من المصارف ولا يحتاج إلى درهم منها لنفقة يومه أو غده ، أو لنفقة أحد ممن تلزمه النفقة عليه .

وما الفرق بين عشرين مليوناً من الذهب باسمك أنت وعشرين مليوناً من الذهب باسم رجل آخر تعرفه أو لا تعرفه بين مخلوقات الله الذين يحسبون بالملايين .

ما الفرق بين مال تملكه ومال لا تملكه على هذا الحساب ؟

ما الفرق بين مليم تستغنى عنه وألف مليون من الدنانير تستغنى عنها ؟

لا فرق بينهما فى حساب العقل السليم .

بل ربما كان الفرق فى هذه الحالة أن المليم أفضل وأوفر من ألف المليون .

لأن هم المليم فى التفكير والحساب أهون من هم الألوف والمئات والعشرات .

وكل ما هنالك أنه تنافس على الهباء أو بطر ومزاح فى تلفيق المخاوف والأخطار .

تنافس على الهباء ليقال إن صاحب الألف أغنى من صاحب المائة أو العشرة .

وبطر أو مزاح فى تلفيق المخاوف والأخطار ، لأنك تضحك من تلك المخاوف والأخطار لو لم تكن قادراً على توهم الحاجة واختلاقها من العدم ، وأنت لا تخلقها من العدم لو استغنيت عنها واستغنيت عن تلك الأموال .

غنى من الوهم تدفع به حاجة من الوهم . فأنت فى غناك وفى حاجتك من الواهمين .

وإنما الغنى الصحيح كل مال تحوّل فى نفسك إلى إحساس صحيح . فلا قيمة لمال لا يمثله فى خزانة النفس رصيد من الإحساس ، وكل ما فى خزائن الأرض من الذهب والفضة هو مال لك أنت إذا كان قصاراك من المال أن تجمعه فى خزانة أو تكتبه فى أوراق المصرف بحروف اسمك بدلا من سائر الحروف .

أكان « ألبرت لايت » عجيباً كما وصفته الصحف ووصفه قراء الخبر فى المغرب والمشرق ؟

نعم إذا كان العجيب هو النادر المخالف للمألوف .

وكلا وألف مرة كلا كما يقول خطباء الحماسة إذا كان العجيب هو الشائع المخالف للمعقول .

ولك أن تقول إن بلاد العجائب فيها مائة وعشرون مليوناً عجيبون ورجل واحد غير عجيب .

فيقول الناس كلهم : عجيب عجيب ، ولا تسلم أنت يومئذ من تهمة العجب أو من تهمة الجنون .

على أن المرأة هنا أعجب من الرجل والله .

ولو لم تكن أعجب منه لأخذت بتلابيبه وجرته إلى القضاء وملأت عليه الدنيا صخباً ولجباً كما فعلت امرأة الفيلسوف الروسي تلستوي ، أو كما فعلها من قبلها نساء الأجاويد من العرب ، وكلهن يلمن على ترك الغنى وكسب الدعة والثناء .

رجل عجيب وامرأة أعجب ، وعالم أعجب من الرجل والمرأة معاً لأنه يعجب في غير عجب ، وكان من حقه أن يصنع كما صنعا فلا يبتلى بشحاذين من ذلك الطراز ، ولا بنزاع على الحقوق من قبيل النزاع الذي يقود إلى مثل ذلك الإدعاء ، فلا يسمع معه صوت للواجب ولا للإنصاف .

عباس محمود العقاد

من أحاديث الإذاعة(*)

في الترام

للأستاذ علي الطنطاوي

يا سادتي ويا سيداتي . كنت راكباً أمس في الترام ، أفكر في موضوع أتحدث به إليكم ، فأسليكم وأفيدكم ، فلا يكون الحديث لذيذاً بلا نفع ، ولا نافعاً بلا لذة ، فكان يطيّر الموضوعات من رأسي ، هواء بارد يلفح الوجوه ، فيبلغ منها مثل ما تبلغ السياط ، فقمت إلى الباب لأغلقه فاستعصى عليّ ، فشددته فتأبى فجربت فيه الوسائل فما أجدت ، فتركته وقعدت . وصعد شاب مفتول العضل ، عريض المنكبين ، بادي القوة ، فجذبه فما استطاع فأمسكه بكلتا يديه ، ووضع قوته كلها في ساعديه ، حتى احمر وجهه وانتفخت أوداجه ، والباب على حاله ، فأغضى بصره حياء منا أن ينظر في وجوهنا وقعد . وركب بعده شيخ وكهل وامرأتان ، لم يكن فيهم إلا من جرب مثلما جربنا ، وخاب كما خبنا ...

فلما رأيت ذلك ، قلت مقالة أرخميدس في أول الدهر : « أوريكا » ، وجدت الموضوع إني سأجعل موضوع حديثي (في الترام) ، فالترام يا سادة معرض الناس ، ومرآة الأمة ، وهو مسلاة لمن نشد تسلية ، ومدرسة لمن أراد استفادة ، وهو سينما أبطالها أناس صادقون ، لا (يمثلون) رواية وضعها كاتب ، ولكن يعرضون فِطَرهم التي فطرهم الله عليها ، وأخلاقهم وطباعهم وكل صغيرة (في الترام) تمثل كبيرة في الحياة : هذا الباب المغلق مثلاً عنوانِ فصل كبير من فصول حياتنا ، ونقص بيّن في تربيتنا ، إذ ربما كان دفاع الباب أقلّ من قوة اثنين منا ، ولكنا أتيناه متفرقين ، كما نفعل في كل أمر نرومه ، وإصلاح نطلبه ، نمد له فرادى ، ونقصده أشتاتاً ، فلا نصل إلى مقصد ، ولا نبلغ غاية ، قد استقرت (الفردية) في سلائقنا ، فترى الواحد منا يعمل ما لا تعمله الجماعة ، فإذا اجتمعنا أضعف بعضنا بعضاً ، أو استبد بعضنا ببعض ، وإذا نحن أردنا التخلص من هذا ، قفزنا من أول الخط إلى آخره ، فجاوزنا حد الاعتدال ، وتعدينا نطاق الممكن ، وأردنا أن نبني الدار قبل أن نعد الحجارة ، ونصلح الأمة قبل أن نصلح الأفراد ، كأن الأمة مخلوق مستقل ، له طول وعرض وعمق وارتفاع . لا يا سادة ، ما الأمة إلا أنا وأنتم وهم ونحن ، فإذا لم يصلح كل منا نفسه لم يكن للأمة صلاح .

هذا عيب كبير فينا دل عليه الحادث الصغير ، وما أكثر ما تدل الصغائر !

ركبت الترام مرة ، وكان مزدحماً يغصّ براكبيه ، فلا تبصر لون أرضه ، ولا تعرف من الازدحام طوله من عرضه ، وكان على المقعد إلى جنبي شيخ مسنّ أحسبه قد دخل في السبعين ، وكان معه ابن سائل في صحن ضحل لا غطاء له ولا قمر ، فكلما اهتز الترام ، أو تحرك الناس ، طار رشاشه على ثوبي الذي كنت أتجمل به أيام الحرب ، ولا أجد وأنا موظف السبيل إلى غيره ، فكنت أضم ثيابي إليّ ، وأحاول أن ابتعد عنه ، ليدرك أذاه لي فيدفعه عني ، فلا يدرك ولا يبالي ، فقلت له : « يا عم ، قد آذيتنا ... ولوثتنا بالحليب ... » فما كان منه إلا أن صرخ تصريخاً جمع على أهل الترام ، وقال :

(*) كتب هذا الحديث لمحطة الشرق الأدنى . فسجل في مصر وأذيع من يافا يومي (٢١) و (٢٢) مايو .

— « اتق الله ، ما هذا الكفر ؟ ما هذا الجحود ؟ ألا تعرف قدر النعم ؟ إنه حليب طاهر ، هل هو نجاسة ؟ حرام عليك » .

فتركته ودخلت بين الناس ، ووقفت مع الواقفين ، وقد كادت تتلامس الوجوه ، وتتلاقى الأنفاس ، وكدت أختنق ، وإذا بشاب على آخر طراز ... فى فمه سيكار أسود ضخم كأنه ذنب العَضْرَفُوط[1] ، يخرج منه دخان كأن رائحته ضراط الخنافس ، فوقف أمامى ، حتى أوشك أن يحرق بناره أنفى ، فقلت له : « انتبه يا أخى » ، فصاح : « وأين الحرية الشخصية ؟ وبأى حق تكلمنى ؟ » وأمثال هذا الهذيان ...

فرأيت فى ذلك مثالا لعيب آخر من عيوبنا ، إننا نأخذ المسائل مقلوبة ، ونفهمها على أضدادها ، فلا الشيخ فقه الدين وعرف الحلال من الحرام ، قبل أن يعظ ويفتى ، ولا الشاب عرف المدنية ، وأدرك أحوال أهلها ، قبل أن يهذى ويتفلسف ، الدين يحرم إيذاء الناس ، والمدنية تمنع التدخين فى الترام ، ولكنا نأخذ ما لا نعرف ، ونخوض فيما لا نعلم ، فكان فى حياتنا الشىء وضدّه ، اجتمعت فيها المتناقضات ، وائتلفت المختلفات ، كما يكون فى عصور الانتقال كلها ...

وصعدت الترام مرة عجوز متصابية متبرجة ، كأنّ وجهها خريطة حربية ، من كثرة الخطوط المرسومة عليه والألوان ، ففوق عينيها خطان أسودان مقوّسان ، وعلى خديها بقعتان حمراوان ، وشفتاها كأنهما قد غمستا بالماء المغلى فاحترقتا ثم نزفتا ، فاجتمع عليهما الدم متجمداً فظيعاً ، فلم تعودا شفتين ولكن صارتا والعياذ بالله ، آفتين مشوّهتين ، وأظافر يديها كأظافر ذئبة افترست حَمَلاً ، فهى طويلة محمرّة مخيفة ، فوقفت فى غرفة الرجال وهى مملوءة بالناس ، وإلى جنبها غرفة النساء فارغة مفتوحاً بابها ، فنظر الناس إليها متعجبين ، ثم ردّوا أبصارهم عنها منكرين ، فقالت : « ما فيكم واحد مؤدب ، يقوم للست يا عيب الشوم » .

فقال لها أحد الحاضرين . « تفضلى ، هذه غرفة النساء خالية » فنفضت يدها فى وجوهنا . وقالت :

— أنتم (متأخرين) كثير ، (متوحشين) ما تعلمتم التمدن .

ورأيت مرة شابين دخلا علىّ غرفة الترام ، يلبسان أردية بلا أردان ، وسراويل تكشف السيقان ، فألقى أحدهما بنفسه على المقعد فاضطجع اضطجاع العروس على سريرها ، ورفع الثانى رجلا فوق الرجل فعل الراقصة على مسرحها ، ثم تحدثا حديثاً مخلوطاً فيه العامية بالفرنسية بالانكليزية ، بالضحكات الخليعة ، والإشارات المخنثة ، تحدثا فى الأدب ، فكان من رأيهما أن الزيات والعقاد والمازنى تحتاج كتاباتهم إلى ترجمان ، لصعوبتها وأنها لا تفهم بلا قاموس ، ثم ذكرا الامتحان والدروس ، مع الحب والغرام ، وأماكن اللهو والتسلية ... حتى أنى لم أعد أطيق الصبر فنزلت وركبت تراماً آخر ...

هذان مثالان لطبقة من نسائنا ورجالنا ، يبديها الترام إن أخفتها البيوت ، طبقة هى فى الأمة كالديناميت فى البناء ، والسم فى الجسم ، والقذى فى العين ، وهى وإن تكن نادرة فينا . ولم تكن تخلو أمة من مثلها — لا ينبغى للمصلحين منا أن يغفلوا عنها ، ويهملوا إصلاحها ، لأننا أمة تستعيد اليوم حريتها ، وتبدأ جهادها وتسعى لتصل ما انقطع من أمجادها ، ولا ينال المجد إلا بشباب أولى خلق وعلم ، ونساء أولات عقل وعفاف .

ولكنّ فى الترام ، فى مقابل هذه الصور التى تؤلم وتسوء صوراً تسرّ وتفرح ، لقيت فيه أمس فلاحاً من فلاحى مصر بجلبابه و (طاقيته) وزَيّه ، وكان معى صديق يتكلم فى الجلاء عن مصر ، وفى جامعة الدول العربية ، فاندفع والله هذا الفلاح فى حديث عن السياسة والنزاع بين الدول الكبرى ، وموقف هذا الشرق الأدنى ، وما يتوقع له ، وفصّل القول فى حالة مصر والشام والعراق والمغرب والحجاز واليمن ، فكانت محاضرة مرتجلة استمرت أكثر من نصف ساعة ، مشى فيها الترام من الفسطاط إلى شبرا ، لو أن سياسياً دعا الناس إلى أنخم ناد من النوادى ، فألقى عليهم مثلها لخرجوا معجبين .

ولقيت فى الترام فلاحاً آخر ، مرّ به جابى الترام فناداه ، « يا أفندى » فقال له : « ما فيش أفندية دى الوقت ، الفلاحين هم أسياد البلد » ! يقظة عجيبة ، وكلام عظيم ، وسيكون أعظم يوم يصير الفلاحون أسياد البلد حقاً ، يوم لا يبقى فى مصر شركة أجنبية ، ولا مصرف أجنبى ، يوم لا يبقى فى مصر شحاد مصرى ، يوم يكون المصريون أعلم من الأجانب وأنظف منهم وأحرص على الصحة وأفهم للحياة وأسبق إلى المغامرة ، وسيجىء هذا اليوم قريباً بحول الله .

أيها السادة والسيدات .

(١) من نوع الحرباء والحرذون .

إن الترام يكشف أخلاق الناس، وطبائع البلدان، وهو مدرسة يرى المرء فيها القبيح من جاره فيتركه، والحسن فيتعلمه ويستمتع الملاحظ الدقيق بعد هذا كله بفصول (الفلم) البشرى المعروض عليه

هذا فصل من الرواية: رفيقان يدعان الأمكنة الخالية، ويجلسان حولك هذا عن يمينك وهذا عن شمالك، ويتحدثان فى أمورهما الخاصة بهما، من فوق رأسك، لا يحفلان بك ولا يباليانك، كأنما أنت كرسى أو متكأ أو كأن أذنيك شباك يتكلمان منه ...

وهذا فصل آخر: رجل طويل عريض، لا يطيب له أكل (بذر البطيخ) إلا فى الترام، فلا يزال يقضمه بأسنانه، ويقذف قشره بلسانه، فإن لم يصب به الناس، آذاهم بقبح منظره، وسوء أدبه ...

وهذا رجل يأتيك من خلفك وأنت واقف فى زاوية الترام، يرجوك أن تفسح له ليمر، فإذا انزحت له أخذ مكانك وتركك حائراً لا تدرى أين تقف!

وهذا عامل بثيابه الملوثة بالزيت المدنى، أو الملطخة بالطين، يحتك بك وأنت بثيابك البيض فلا يدعك حتى ينقل إليك زيته وطينه، فإن تكلمت قال: ليه؟ هو احنا مش بنى آدم!

وهذه امرأة ضخمة عريضة القفا، تصعد ومعها ولد على ظهرها، وولد تسحبه بيدها، وسلة كبيرة فيها سمك وبصل وكراث، فتقعد على الأرض، فتشغل مكاناً كان يقف فيه عشرة رجال، ثم لا تزال تسب هذا لأنه داس على ثوبها، وتشتم ذاك لأنه مس ولدها.

وهذا عجوز ثرثار، لا يفتأ الطريق كله، يذم هذا الشعب لأنه لم يتعلم أن النزول يكون من مقدم الترام، والركوب من آخره ويعجب من جهله وقلة تربيته، ولا يزال كذلك حتى يصل إلى محطته، فينسى محاضرته الطويلة، وينزل من خلف لامن قدام

وهذا رجل منتفخ كأنه الديك الرومى، مزهو كالطاووس يقعد أمامك فلا يرضيه ألا يمتد ويبرز بطنه ويؤخر رأسه ويرفع رجله فى وجهك، حتى يقابلك نعلها، ويكاد يمسك طرفها ... ثم إنه إذا لمح الجابى أسرع بالنزول ولم يدفع ثمن التذكرة!

وهذا شيخ له عمامة وعذبة، لا يحب أن يذكر الله إلا على سبحة طويلة يرفعها بيده حتى يراها الناس كلهم، ولا يتمسك بسنة السواك إلا فى الترام، فيخرجه من جيبه طويلا ثخيناً، فيستاك به على أبشع هيئة، ثم يعصره بأصابعه ويبصق على الأرض وإذا انتقده أحد، نادى: يا ضيعة الدين، ويا بوار الأخلاق ...

وهذا فصل آخر (يمثله) السائق، يقف فى المحطة يشترى طبق الفول ورغيف الخبز، ويتباطأ بعدها فى سيره لياً كله، حتى إذا وجد أنه تأخر وفاته الموعد، أسرع إسراع المجنون، ولم يمهل المرأة حتى تركب ولدها وتركب بعده، فيبقى الولد فى الترام خائفاً يصيح ويبكى يكاد يلقى بنفسه، وأمه تعدو وراء الترام، والناس يصرخون من كل جانب ...

وفى الترام دليل على طباع كل قطر، ونموذج من حياته، ففى الشام عراك على النزول والصعود، وتسابق فظيع إلى المقاعد لأن فيه شعباً حديث عهد بالجهاد والنضال، ولأن الترام له أول وله آخر، فالناس يركبون معاً وينزلون، وفى مصر تدور أكثر الترامات، دوران السوانى، وتكر كر الأيام، لا أول لها ولا آخر، والناس ينزلون ويصعدون فى كل مكان، وفى مصر شعب وادع أنيس فإذا فرغ مقعد فى الدرجة الأولى رأيت كلاً يدعو الآخر إليه. والفرق فى الشام وبيروت بين ركاب الدرجة الأولى والثانية قليل لا يكاد يظهر فى زى ولا حديث، وهو فى مصر ظاهر بين، لأن شعار مصر التفاوت فى كل شىء، فليس فى الشام ساحله وداخله، أغنياء من الوزن الثقيل ولكن ليس فيه أيضاً إلا القليل من الفقراء المدقعين، وليس فيه علماء كبار جداً، ولكن ليس فيه أيضاً أمية طاغية، وجهالة منتشرة، أما مصر ففيها أشد الغنى وأشد الفقر، وفيها العلم والجهل، والقصور والأكواخ، بل إن فيها شارعاً واحداً، فى أوله الملاهى والمسارح فكأنك منه فى باريز وفى أوسطه البنوك والمصارف، فكأنه من نيويورك. وآخره شارع من شوارع الرقة أو الميادين والترام فى الشام هدف كل مظاهرة، وغاية كل إضراب، فإن كان للشعب احتجاج على الحكومة، كسر الترام، وإن كان للطلاب مطلب من المعارف أحرقوا الترام، وإن شكا الناس من سوء الخبز، أو كثرة الضرائب حطموا الترام، لأنه رمز السيادة الاقتصادية الأجنبية، وأهل الشام لا يحتملون لأجنبى سيادة لا فى الحكم ولا فى المال.

إن حديث الترام طويل، ووقت الحديث القصير، وقد استنفدته كله وزدت عليه، وأنا أرجو إن أمللتكم عفوكم، وأشكر لكم على سماعه صبركم، والسلام عليكم.

(القاهرة) **على الطنطاوى**

القسم الأول :

فرنسا ومستعمراتها

للاستاذ أحمد رمزى بك

هذا بحث تحليلى للاستعمار الفرنسى ومتاعبه يعرض له بطريقة إجمالية ، ويتعرض بعض النواحى التاريخية والاقتصادية وأحياناً العسكرية مع الإشارة إلى الوضع الشاذ الذى كانت فيه المستعمرات الفرنسية بين ألمانيا والحلفاء مدة الحرب الماضية . وقد شجعنى على نشره المقال الشائق الذى كتبه الأستاذ إسماعيل مظهر بجريدة الكتلة يوم السبت ١٧/٥/١٩٤٧ تحت عنوان أعصر جديد ؟ أم عودة إلى عصور العبودية ؟ وما جاء بالرسالة تحت عنوان من وراء السور الحديدى « جامعة عربية أم اتحاد فرنسي » .

إن ما لقيته قضية فلسطين فى أمريكا وأمام مجلس الأمن تجربة قاسية للعرب ، لأن الانتصار على الخصم يستلزم فهم الخصم والإلمام بأساليبه ، وفى هذه الكلمة أفكار وآراء قد لا تعجب بها ولكنها فى صميم الدفاع عن قضية العرب وحق شعوبه لأنها مستقاة من أقوال الخصم وهى مدعاة لفهمه ولن تنتصر على خصمك إلا إذا فهمته .

فرنسا ومستعمراتها :

كانت فرنسا دولة استعمارية كبرى فى القرن الثامن عشر ، خضعت لسلطانها مساحات واسعة فى أمريكا الشمالية وأكثر من منطقة غنية من مقاطعات الهند ، ولكنها فقدت هذه المنزلة فى حروب القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية ، فأخذت تجاهد طول المائة سنة الماضية لكى تسترجع مقامها كدولة استعمارية . ولقد برهنت تجارب أكثر من قرن على تعذر تحقيق السيادة البحرية لفرنسا وكان ضياع المستعمرات البعيدة فى أمريكا والهند كافياً لإقناع الفرنسيين أنه بغير أسطول قوى لا يمكن ضمان الدفاع عنها أمام القوة البحرية رغم جهود القواد والحكام وعبقريتهم . فكان مما فكر فيه نابليون أن يختصر الطريق البحرى الذى يفصل فرنسا عن الأراضى التى تخضع لها ، فقاد حملة مصر مؤملا أن يجعل منها قاعدة للتوسع الاستعمارى الفرنسى بالمشرق ، وكانت بريطانيا تعرف أن هذه الضربة موجهة إليها فى الهند فوقفت أمامه وقطعت الطريق البحرى عليه وأجبرت جيشه على الجلاء ، فالحملة الفرنسية هذه على مصر كانت مدرسة وتجربة برهنت على أن الفن الحربى الحديث قد جعل من السهل التغلب على جيوش المسلمين فى أراضيهم ، ثم فتحت الأذهان إلى استعمار الجزء الأفريقى المقابل لأوروبا ، فهى فاتحة الاستعمار الفرنسى فى القرن التاسع عشر .

ولا ننس أن فرنسا حينما ألجئت إلى إخلاء مصر كانت تفكر فى العودة إليها وتأسيس الامبراطورية الاستعمارية عن طريق البر إن أمكن ، أو قل على الرمال التى أراد أن يسير عليها لويس التاسع لفتح مصر فلاقى حتفه فى تونس ، ولذلك اتجهت أنظار رجالها إلى بقعة من الساحل الأفريقى تكون أقرب إليه وأبعد عن إثارة شكوك ومخاوف بريطانيا فلم تجد أقرب إليها من الساحل المغربى بالجزائر إذ هو أسهل طريق للعبور إلى أفريقية وأسلم ما يصلح لاتخاذ مرافئه مثل الجزائر ووهران وغيرها كرؤوس جسور للزحف إلى الداخل ، وقد خدمتها الظروف حينما اشتد العداء بين مصر وتركيا فانقسم الشرق على نفسه وخلا لهـا الجو فى الجهة التى تطمع بامتلاكها . حينئذ قذفت بجيوشها بين ١٨٣٠ و ١٨٤٧ على القطر الجزائرى فى الوقت الذى كانت جيوش مصر وتركيا تتقاتل فيما بينها قتالا كانت نتيجته أن انتهى بالفشل للجانبين ، بينما اندفعت هى بقوة لترسيخ أقدام جنودها على الأرض الأفريقية التى حملت أعلام دول الموحدين والمرابطين وكانت فى وقت ما موئلا للعروبة والإسلام . فأخذت تحارب أهلها وتشتتهم . ولما انتهت حروب الأتراك والمصريين لم يكن بوسع أحد الطرفين أن يمد يد المساعدة أو يجهر بالدعوة لنصرة المجاهدين من قبائل الجزائر المدافعين عن بلادهم ، فكان أن سلم الأمير عبد القادر للفرنسيين ، وإذا نحن أمام أول هزيمة للاسلام بشمال أفريقيا ، وإذا نحن فى بداية الأرزاء التى أعقبت توغل الفرنسيين فى المغرب ونتج عنه تأسيس امبراطورية ضخمة فى بلاد عربية .

أوربا تشجع فرنسا فى توسعها خارج القارة الأوربية :

وكانت فرنسا فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أقوى أمم أوروبا وأكثرها سكاناً إذ بلغت ٢٥ مليون نسمة ، وهو عدد عظيم لما كانت عليه أوروبا فى ذلك الوقت ، وبذلك تفاءل الساسة الأوروبيون بالاتجاه الجديد الذى سارت فيه ووجدوا أن من مصلحة السلام والأمن فى القارة الأوروبية تشجيع هذا التوسع والتزام سياسة الصمت إزاء هذا العدوان لأنه سيؤدى إلى إشغال قوى فرنسا البرية وإلى توزيع جهود هذه الأمة الحربية

في ناحية لا تضرهم، خصوصاً إذا وجد ضباط الجيش ورجال الجندية الذين أسكرتهم ذكريات الانتصارات الماضية مجالا لنشاطهم في بلاد بعيدة عن أوروبا بعد أن دوخوا أمما كثيرة بحروب دامت جيلين ، وقد تم لهم ما أرادوا وقنعت فرنسا ورجالها بهذا الدور وزاد تمسكهم به خصوصاً بعد هزيمتهم في حرب ١٨٧٠ مع ألمانيا .

فرنسا تجعل من أراضي أفريقيا معسكراً لتمرين جيوشها وضباطها

فكان أن أصبحت فرنسا بعد عدة سنوات تملك الشاطىء الأفريقي وتسيطر على مناطق وأقاليم متسعة في الصحراء، تتنقل فيها كتائبها ويتلقى قوادها وضباطها بأنحائها أساليب القتال المختلفة ويأخذون دروساً عملية باتخاذ الحروب ضد الأهالي صناعة دائمة فيدخلون الجديد كل سنة على كتب التدريب والقيادة وأنظمة تعليم عساكر المستعمرات من الجنود الملونة .

وجاءت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وفرنسا ثاني دولة استعمارية في العالم ، فخاضت غمارها وأعلامها تخفق على الكتائب المؤلفة من جنود المغرب ومدغشقر والهند الصينية والسنغال تسوق الآلاف منها إلى الموت وتدفع بهم إلى الصفوف الأمامية . ثم أمضيت معاهدة الصلح فإذا بمناطق شاسعة من أملاك ألمانيا الأفريقية تدخل ضمن نطاق الامبراطورية الفرنسية إما عن طريق تعديل الحدود أو عن طريق الانتداب جزاء وفاقاً على المجهود الحربي الذي بذله جنود المستعمرات من السمر والسود في كفاحهم لتحرير العالم . فإذا نظرت إلى خريطة لأفريقيا تجد الامبراطورية الفرنسية كتلة ضخمة ملونة بلون واحد تقع جنوب فرنسا وكأنها جزء متمم لها أو امتداد لأراضيها لا يفصلها عنها غير البحر الأبيض المتوسط ، ولكنه طريق سهل قريب لأنه يجمع بين الشاطئين في ساعات معدودة ، وهذه الامبراطورية أو المجموعة من المستعمرات تبدو أمام الناظر والبحر يحيط بها من ثلاث جهات : المتوسط في الشمال ، والمحيط الأطلسي في الغرب والجنوب ، ويفصلها عن بعضها الصحراء الكبرى وهي في صمتها وتحديها للانسان لا تزال كالربع الخالي في جزيرة العرب تسخر من الإنسان الذي لم يفك أسرارها بعد ولم يخضعها لإرادته ، فقد فكر المستعمرون في استثمار أراضيها وفي اختراقها بعدة طرق ممهدة للسيارات أو إنشاء خط حديدي يقطعها من الشمال إلى الجنوب ، ولم يتحقق للآن شيء من ذلك لأن مجهودات فرنسا محدودة ، وهي لن تسمح لغيرها من الدول أن يتولى هذا العمل عنها . ويخيل إلى الباحث أن هذا العمل الاستعماري الذي بدأ بعد حروب نابليون طفرة فأصبح حقيقة في عصرنا الحالي يبدو كعمل عظيم ساهمت فيه أمة برجالها ودمائها وتفكير أبنائها ، وإنه إن دل على شيء فهو يدل على عبقرية الذين جاهدوا في إنشائه وجمعوا بصبر شتاته فحققوا لبلادهم حكم امبراطورية موحدة كافية لإسعاد أي بلد أوروبي يمكنه أن يتحول باستغلال خيرات هذه الامبراطورية وثرواتها وأراضيها إلى بلد عظيم في الصف الأول من العالم .

فهل وصلت فرنسا إلى أن تحكم بعقل وحكمة ودراية هذه الامبراطورية وأن تحسن سياستها مع الشعوب التي تسكنها فتسعدها وتزيد من عدد سكانها وتأخذ بيدهم في طريق الحضارة والعلم والحكم الذاتي حتى تجني ما في هذه الأراضي من الخيرات والثمرات ؟ .

الواقع أن فرنسا لم توفق كثيراً في مضمار الاستعمار كما يفهمه العالم الغربي ، وإن وفقت فلشيء لا يتناسب مع جهودها أو هو ضئيل بجانب ما كان يمكن أن تصل إليه ، ذلك لأنها بقيت ولا تزال تعيش على أساليب الماضي في إدارة مستعمراتها وفي علاقاتها مع البلاد الخاضعة لها، وإلا فلماذا يواجه الباحث في أنحاء امبراطوريتها ما يشعره أنه داخل حصن كبير أو معسكر من المعسكرات وحوله نطاق من الأسلاك الشائكة يحرسه جنود من السنغال يسيطر عليهم رجال أشداء كل همهم قطع كل العلائق بين هذه البلاد والعالم الخارجي ولا يعرفون سوى قانون البطش في علاقاتهم مع السكان ؟ .

لماذا يلازم الناس هذا الشعور دائماً ؟ لأن عيوب الإدارة الفرنسية للمستعمرات ظاهرة واضحة ملموسة وموقف الحكومة المركزية وممثليها يشعرك باستمرار أن فرنسا لم تنجح كأمة حاكمة ، ولذلك لم تستطع أن تقدم دليلا واحداً على رغبتها في تحرير الشعوب المظلومة ، ولا في الأخذ بيدها في طريق العلم والنور ، ولا في إعطائها ما تطلب من حرية أو حكم ذاتي أو اشتراكها في إدارة الأمور العامة أو تسليمها إلى أهلها ، كما أنها لم تقدم للعالم برنامجاً إنسانياً يمكن أن يحقق شيئاً من ذلك .

إننا لا نقر الاستعمار على أي وجه من الوجوه ، ونراه نكبة على البلاد والأمم التي أصيبت به ، ولكننا مع ذلك ننقل عن كتاب الغرب وعن الفرنسيين أنفسهم ما يعترضون به على هذه الإدارة

ونتساءل مع الباحثين لماذا تطور العالم ووقفت فرنسا جامدة لا تتقدم؟ ولماذا غمرت الدنيا موجات التحرر في إفريقيا وآسيا وتسللت إلى الأراضي الفرنسية، وفرنسا واقفة لم تتغير ولم تستفد شيئاً من دروس الماضي؟ ثم كيف تقدم على إقرار سياسة الإدماج والاتحاد في وقت تبدو فيه عوامل التفكك والانهيار ملموسة واضحة؟ أليس في فرض سياسة الاتحاد دليل على إفلاس السياسة التي اتبعتها الحكومة الفرنسية والتي كانت ترى إلى إلغاء الجنسيات والقوميات في بعض الجهات وصهرها في بوتقة واحدة؟

نظريات استعمارية:

يقول الباحثون في الاستعمار وشئونه إنه كمشروع تجاري يجب أن ينتهي بالكسب على أقصر سبيل وأهون طريق، فليس من مصلحة الدولة الحاكمة أن تتحمل تكاليف إدارة المستعمرة وحفظ الأمن فيها، بل هي تساعد على أن تقف المستعمرة معتمدة على مواردها الخاصة، ويكره المستعمر استعمال العنف والقوة، ويعد التلويح بهما ضعفاً، والالتجاء إليهما مخاطرة يتحاشى الوقوع ما أمكن فيها، فهو كالتاجر الذي يحاسب على الدانق ويحسب للمستقبل ألف حساب، ولذلك يعتمد في حكم الشعوب على تفهمها وفهمها ليستغل غرائزها لصالحه، ولا يلجأ إلى السلاح إلا في الوقت المناسب وبالقدر اللازم، وهو أسرع الناس إلى إزالة أثر القوة من نفوس المحكومين. هذه هي تجارب الأمم التي سارت في هذا النشاط شوطاً بعيداً، فهل اتبعت فرنسا أو أخذت بهذه السياسة؟ إن التقاليد التي وضعتها حكومات فرنسا المختلفة في سياستها الاستعمارية كانت جامدة، وصعب في كثير من الأحيان على المسئولين تغييرها واستبدالها. نعم عملت أحياناً للخروج عنها شخصيات قوية فرضت إرادتها مثل ليوتي في مراكش، ولكن سرعان ما عاد الروتين الاستعماري إلى قواعده وفرض إرادته من جديد. ومن عيوب الاستعمار الفرنسي أن فرنسا بدأت حملاتها بتكاليف باهظة، أي أن كل قطر أو بقعة من الأرض دخلتها أو بسطت حمايتها عليها كانت دافعي الضرائب الفرنسيين مبالغ لا يستهان بها، وقد جاءت تكاليف الفتح ثقيلة لأن الطبيعة الفرنسية تريد أولا الغلبة والنصر، فهي قد حكّمت السيف، حيث يلزم السيف، ووضعت السيف أيضاً حيث كان يلزم غير السيف؛ وفي ذلك مخالفة لقواعد الاستعمار الذي يسمّن البقرة ليستدر أكبر كمية من ألبانها. أما هي فحيثما حلت تحمل الأهالي الكثير من الفقر والفاقة والمحن والتشريد.

ولقد عهدنا المستعمر يتخذ له بطانة من أهل البلاد المستعبدة يرضيهم على أغراضه ويوسوس لهم بما يريد، فإذاهم طوع إشارته، يصل بواسطتهم إلى أهدافه وأغراضه من غير أن تظهر نياته أوتشمر بأنفاسه، ومن دون ضجة ولاجلبة. وللاستعمار الفرنسي من يخدمه بإخلاص من زعماء البلاد الخاضعة له، ولكن فرنسا اعتادت أن تضع على أكتاف رجال فرنسيين من العسكريين والمدنيين العبء الأكبر من المسئوليات، وأن تسند إليهم مباشرة سلطات التشريع والإدارة والتنفيذ، فإن أساءوا التصرف تحملت هي عبء الأخطاء وخسرت عطف الناس بالدفاع عن رجالها، بينما قواعد المستعمرين تحتم على الدولة الغاصبة أن ترسم الخطط الكبرى، وأن تترك أمور التنفيذ لأهل البلاد يتولونها بأيديهم حتى إذا أخطأوا، وغالباً هم مخطئون، تبرأت السلطات منهم وألصقت الأخطاء بهم وأتت بفريق جديد يتولى تمثيل نفس الدور. وهذا النظام الأخير يجعل عيوب الإدارة الاستعمارية ملصقة بأهل البلاد دائماً، بينما النظام الفرنسي يضع العيوب على رأس الدولة المستعمرة ويحمّلها الأخطاء والأعباء كما قلنا.

تأخر المستعمرات الفرنسية في ميدان الحضارة وأسبابه:

وهناك ظاهرة أخرى لها أهميتها، وتكاد تنفرد بها المستعمرات الفرنسية وما يشبهها من ممتلكات بعض الدول الأوربية التي احتفظت بمستعمراتها كتراث تاريخي لماض قديم، وهذه الظاهرة هي أن التقدم المادي الذي صحب العالم في السنوات الماضية والذي فرض نفسه على أغلب المستعمرات في قارات العالم لم يشمل الإمبراطورية الفرنسية، ولذلك إذا تحدث الفرنسيون عن مجهودهم الاستعماري وملأوا العالم بكتبهم ونشراتهم، فهو مجهود عظيم من وجهة نظرهم وحدهم، ولكنه مجهود متواضع إذا قيس بما قامت به الأمم الاستعمارية الأخرى. فإذا نزلت بشمال أفريقيا، وهي من البقاع الخصبة الغنية بمواردها وثرواتها المعدنية وقارنت

ما عملته فرنسا هناك بالمجهود الذى بذله الاستعمار فى نواح مماثلة ، لوجدت أن مجهودها لم يصل إلى الدرجة التى تسمح بها حضارة القرن العشرين ، وبما تضعه بين يدى الإنسان من وسائل تمكنه من السيطرة على الطبيعة ومن إخضاعها لإرادته .

تعليل هذا الوضع :

ويعللون هذا النقص بأن فرنسا بلد زراعى فى حياته الاقتصادية ، وهذا الوضع ينقص من طاقة فرنسا وإمكانياتها كدولة عظمى ، ثم هى وطن الملكيات الصغيرة ، ولذلك يبرز فيها عامل اقتصادى هام هو عامل الادخار أو التوفير النقدى الشعبى الذى يعتمد فى تراكمه وازدياده عاماً بعد عام على ملايين من الناس . وقيل إن هذه الأمور مجتمعة تؤثر فى سياسة الدولة حينما تواجه عملها فى المستعمرات لاستغلال مواردها ، وذكر بعض الكتاب أن فرنسا كانت تحسن صنعاً لو أنها من البداية فتحت أبواب امبراطوريتها لنشاط الدول الصناعية الكبرى مثل أمريكا الشمالية ، أو بعض الدول الأوربية ، ولكن رجال الحكم وأساطين الاستعمار حرصوا منذ زمان طويل على وضع العراقيل الجمركية والتشريعية لمنع حدوث هذا النشاط ، بل أقفلوا حدود امبراطوريتهم وجعلوا منها مناطق محرمة وممنوعة لأى تنافس يأتى إليها من الخارج

ولا نشك فى أن فرنسا كانت بلداً صناعياً من الدرجة الأولى وكان هذا فى القرن الماضى ، ولكن ظهور الصناعة الضخمة وتطورها السريع فى بلدان أوروبية أخرى جعل منها بلداً صناعياً فى الدرجة الثانية . ولقد ذكرنا فى بحث سابق أن التركيز الاقتصادى بين الدول الصناعية والمستعمرات أو بين المستعمرات وبعضها يعتمد على التفوق الصناعى والقدرة الرأسمالية والإنتاج الواسع وهى مجتمعة تمهد للدولة صاحبة الشأن أن تسير بالمستعمرات ومناطق النفوذ نحو التكتل الذى يجعل من هذه الدولة قوة عالية .

أما الاستعمار الفرنسى فلا يزال فى الدور البدائى الذى لم يتطور بهذه الوثبة ، ولعل شعور الفرنسيين بذلك هو الذى أملى على رجال السياسة مشروع الاتحاد الفرنسى الذى يحاولون تنفيذه .

فرنسا بلد زراعى :

وإذا نظرنا لحالة فرنسا كبلد زراعى نجد أنها من أغنى البلاد الأوروبية ، بل إحدى الدول القليلة التى تمد فى حالة استكفاء بالنسبة لغيرها ، ومعنى ذلك أنها لا تعانى مشاكل ومتاعب لإطعام سكانها؛ فهى ليست بحاجة إلى مضاعفة المساحات المزروعة فى مستعمراتها ، فإذا كان هناك بعض الأثر للتطور الإنتاجى الزراعى وزيادته ، ويبدو هذا ملموساً فى بعض المناطق أو مكللا نسبياً بالنجاح فى المزارع التى يملكها الفرنسيون بالمستعمرات ، فأنه محدود الغاية والوسائل

رؤوس الأموال :

أما أثر رؤوس الأموال وكونها مجمعة من التوفير الشعبى فيبدو فى اتجاه أصحابها إلى تفضيل القروض الخارجية للدول الأجنبية الصديقة لتصورهم بأن فى ذلك ضمانات أكبر من المجازفة فى صرفها على مشروعات فيها روح المغامرة بأراضى المستعمرات وهى قاعدة مستمدة من طبيعة الشعب وعقليته .

فرنسا كبلد صناعى :

ونعود إلى الناحية الصناعية إذ هى العامل الأساسى الفعال لكل سياسة استعمارية موفقة نظراً لما تحويه أراضى القارات البعيدة من مواد أولية ضرورية للصناعات ، ولأن عظمة الدول الصناعية بنيت على ما تقدمه أراضى مستعمراتها من خامات رخيصة قد تذهب أحيانا إلى تمكين كل واحدة من احتكار بعض هذه المواد وحرمان بقية العالم منها . فإذا نظرنا إلى حالة فرنسا بعد أن انتهت الحرب العظمى الأولى نجد أنه طرأ عليها بعد سنة ١٩٢٠ تغيير بعيد المدى ، فقد بدأ يسيطر على مقدراتها طائفة من أصحاب الصناعات الكبرى يدعمهم رجال المال ، واعتمدوا على ما يبثونه فى الجماهير من آراء ، وأفكار عملوا على أن تصبح بالتكرار راسخة ، وأهمها فكرة أمن فرنسا وضمان حدودها ، أى إيهام الشعب بوجود خطر دائم يهدد كيانه ليبذل مجهوداً فى ناحية معينة أو ليستعد لتلبية التضحيات التى يتطلبها العمل لدرء هذه الأخطار .

فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها :

ولم تكن فرنسا قبل سنة ١٩١٤ فى حالة تمكنها من منافسة الدول الصناعية الكبرى التى نضجت أو أتمت بناء هيكلها الآلى الضخم لا فى السوق العالمية ولا فى طريقة استغلال واستثمار أملاكها ، وكانت تلجأ إلى وسائل شاذة لحماية تجارتها فى الأراضى المملوكة لها ، فما بالك وقد بدأت بعد الحرب مباشرة تحمل أعباء إنشاء صناعة على نمط الصناعات الثقيلة — يقصد بها صناعات الحديد والفولاذ والصناعات الكيماوية الكبرى — ولو أن التعبئة المالية والفنية والإنشائية للوصول إلى هذه الغاية كافية لأن تستنفد مجهودات جيل بأكمله .

وقد بدأ هذا المشروع يسير سيره الطبيعى من يوم استرجاع مقاطعتى الألزاس واللورين إذ جمل ضم هاتين القاطعتين بين يدى رجال الصناعة بعض ما كان ينقصها من مواد الصلب والحديد ، ويا حبذا لو ضم إليها جزء آخر من أراضى ألمانيا وهو الروهر إذن لحصلت فرنسا على ما تحتاجه من الفحم الحجرى .

يلتمس الكتاب الفرنسيون بعض العذر لبلادهم فى تقصيرها الاستعمارى الذى ينسبونه إلى أن هذا المشروع الصناعى الكبير الذى جمل رؤوس الأموال تتجه إلى تحقيقه اتجاها ترك النشاط فى أراضى المستعمرات قاصراً على الضرورى اللازم ، وعليه تأخر تنفيذ المشروعات الكبرى التى وضعت لاستغلال أراضى جبال أطلس بمراكش ونظر إليها وإلى غيرها نظرة ثانوية أو تأجل تنفيذها باعتبار أنها تكميلية للبرنامج الصناعى فى أراضى فرنسا الأوروبية .

وعليه فهم لا يسلمون بالنقص الذى بدا من ناحية بلادهم ويقولون ولو أن الفترة بين الحربين نقلت الدول الكبرى الصناعية مرحلة نحو التكتل والتماسك مع المستعمرات بل ذهبت إلى إدخال الصناعات فى أراضى المستعمرات نفسها كما حصل فى الهند واستراليا وأفريقيا الجنوبية وبقيت فرنسا تدير مستعمراتها بأساليب قديمة إلا أنها حسناً فعلت لأنها انتظرت الوقت المناسب لكى تستفيد من تجارب غيرها ولكى يحين الوقت الذى تندمج فيه هذه الأقطار فى نظام اتحاد فرنسى يشبه من بعض الوجوه نظام الاتحاد السوفيتى : وحينئذ تظهر للعالم فرنسا الاستعمارية القوية التى لم تضع منها سنوات الانتقال بل كانت تحضر برنامجا صناعيا للمستعمرات سوف تدهش العالم المتمدين به .

أحمد رمزي

وزارة المعارف العمومية

المراقبة العامة للثقافة

(جوائز فاروق الأول لسنة ١٩٤٨ م)

تعلن وزارة المعارف أن الموضوعات التى سيمنح المصريون عن الانتاج فيها جوائز فاروق الأول لسنة ١٩٤٨ هى : —

١ — علوم الحياة — مثل النبات والحيوان والفسيولوجيا والطفيليات والتشريح البشرى والحيوانى والطب وفروعه والأحياء المائية .

٢ — العلوم الكيميائية — مثل الكيمياء العضوية وغير العضوية والكيمياء الحيوية والكيمياء الصناعية والكيمياء الصيدلية والتغذية .

٣ — العلوم الجيولوجية — مثل الجيولوجيا وعلم الطبيعيات الأرضية (الجيوفيزيقا) والتعدين .

ويشترط فى الانتاج الذى يقدم للمسابقة : —

١ — أن يكون ذا قيمة علمية أو فنية ممتازة تظهر فيه دقة البحث والابتكار ويهدف خاصة إلى ما يفيد مصر والانتاج القوى ، وتقدم العلوم .

٢ — أن يكون قد سبق نشره . ولم يمض على نشره لأول مرة أكثر من خمس سنوات من تاريخ الإعلان .

٣ — أن يكون باللغة العربية الفصحى ويرسل الانتاج من أربع نسخ إلى المراقبة العامة للثقافة بوزارة المعارف فى موعد غايته ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧ .

وقيمة كل جائزة من الجوائز الثلاث ١٠٠٠ جنيه ، وسيكون موعد منح هذه الجوائز يوم ١١ فبراير سنة ١٩٤٨ لمناسبة عيد الميلاد الملكى السعيد .

٧٢٥٤

٦ - تفسير الأحلام

للعلامة سجموند فرويد
سلسلة محاضرات ألقاها فى ڤينا
للاستاذ محمد جمال الدين حسن

الرقابة فى الأحلام :

وهناك طريقة ثالثة تستخدمها الرقابة فى الأحلام لا يوجد لها مثيل فى حالة الرقابة الصحفية . ولكنى أستطيع أن أوضح لكم هذه الطريقة بالرجوع إلى الحلم الوحيد الذى استطعنا أن نحلله إلى الآن وهو الحلم الذى يدور حول « الثلاث تذاكر التى ثمنها فلورن ونصف » . رأينا أن المحتوى الباطن لهذا الحلم تبرز فيه صفة « التسرع والتبكير » . وقد كان معناه : « لقد كان من الحماقة أنى تزوجت « مبكراً » ، كما كان من الحماقة أن تحجز المقاعد « مقدما » وكما كان من الحماقة أيضاً أن « تسرع » أخت زوجى باضاعة نقودها كلها على قطعة من الحلى . » ولكن هذه الصفة الرئيسية لم يبد لها أثر مطلقاً فى المحتوى الظاهر ، وإنما كان الحلم كله مركزاً فى الذهاب إلى المسرح وأخذ التذاكر . وقد كان لإزاحة هذا التركيز وإعادة ترتيب العناصر من جديد أثره فى انعدام الشبه بين المحتوى الظاهر والمحتوى الباطن للحلم بحيث لا يتسنى لأحد أن يشك مطلقاً فى تستر أحدهما وراء الآخر . وهذه « الإزاحة » تعتبر من أهم الوسائل التى يستخدمها التحريف ، وهى السبب الذى يضفى على الحلم هذه الحالة من الغرابة التى تجعل الحالم نفسه يتردد فى الاعتراف به على أنه إحدى بنات أفكاره .

وعلى هذا فالحذف والتحوير وإعادة ترتيب العناصر ، هذه كلها هى الأساليب التى تتخذها الرقابة فى الأحلام وهى الوسائل التى تستخدم فى التحريف . والرقابة نفسها هى المولد أو هى أحد المولدات التى ينشأ عنها التحريف . أما التحوير والتغيير فى الأوضاع فتدخل عادة تحت عنوان « الإزاحة » .

ولننظر الآن إلى الرقابة فى الأحلام من الوجهة الديناميكية بعد أن ألمنا ببعض الملحوظات عن أوجه النشاط فيها . لعلكم لا يشط بكم الخيال فتصورون الرقيب لأنفسكم على هيئة قزم عبوس الوجه قابع فى إحدى خلايا المخ حيث يقوم بتأدية أعباء وظيفته ، أو تتخيلون أن هناك « مركزاً عصبياً » تنبعث منه تأثيرات رقابية معرضة للزوال إذا زال هذا المركز أو أصابه عطب . ولكن يكفينا فى الوقت الحاضر أن ننظر إلى الرقابة على أنها اصطلاح نافع يعبر عن علاقة ديناميكية ، على أن لا تعوقنا هذه النظرة عن البحث لمعرفة أى نوع من النزعات له هذا التأثير وأيها يخضع له ، كما أنه يجب علينا أن لا نعجب إذا اكتشفنا أننا ربما نكون قد تعرضنا للرقابة من غير أن نتعرف عليها . وهذا ما حدث فعلا . فأنتم تذكرون أننا أثناء قيامنا بتطبيق طريقة الترابط المطلق ، اكتشفنا أن هناك « مقاومة » ما تعترض الجهود التى نبذلها للنفاذ إلى المحتوى الباطن للحلم من خلال الظاهر . وقلنا إن هذه المقاومة تختلف من ناحية الشدة فتكون فى بعض الأحيان ضعيفة جداً فلا تحتاج إلى مجهود كبير لتفسير الحلم وتكون فى أحيان أخرى كبيرة جداً فنحتاج إلى سلسلة طويلة من الأفكار المترابطة و إلى التغلب على كثير من الاعتراضات التى تواجه هذه الأفكار . وهذه الظاهرة التى لاقتنا على شكل « مقاومة » أثناء التفسير نعود فنقابلها مرة أخرى على شكل « رقابة » فى تكوين الحلم ؛ وما المقاومة فى الواقع إلا الرقابة فى شكل ملموس وهى تثبت لنا أن تأثير الرقابة لا ينعدم بعد القيام بعملية التحريف بل يظل قائماً كنشأة دائمة تعمل على إبقاء التحريف على حالته الراهنة . وكما أن المقاومة تختلف فى الشدة باختلاف عناصر الحلم ، فكذلك تختلف أيضاً درجة التحريف الذى ينشأ عن الرقابة . فالمقارنة بين المحتوى الظاهر والمحتوى الباطن تحرينا أن بعض العناصر الباطنة قد حذفت تماما من المحتوى الظاهر أو حورت تحويراً طفيفاً أو كبيراً ، بينما ظل البعض الآخر على حالته التى كان عليها من غير تبديل أو تغيير ، بل ربما ازداد وضوحاً عن الأول .

قلنا إننا نريد أن نبحث لمعرفة أى نوع من النزعات له هذا التأثير الرقابى وأيها يخضع له والجواب على هذا السؤال ؛ الذى

يعتبر جوهريا ، الوقوف على معنى الأحلام أو ربما الحياة البشرية بأسرها ، يكون من الأمور السهلة إذا فحصنا سلسلة الأحلام التي بحثنا في تفسيرها . فنرى من ذلك أن هـذه النزعات هي التي يحكم عليها الشخص الحالم في حالته اليقظة بأنها جزء من نفسه لا ينفصل عنها . فمن المؤكد أن الشخص الذي لا يريد أن يعترف بالتفسير الصحيح لحلم من الأحلام التي رآها هو ، فإنما يفعل ذلك مدفوعاً بنفس العوامل التي تولد الرقابة وتتسبب في وقوع التحريف في الحلم حتى يصعب تفسيره . فالمرأة التي في الخمسين من عمرها مثلا قد أصابها الفزع والذهول لبشاعة الحلم الذي رأته رغمـا عن أنه لم يفسر لهـا ، فما بالكم إذاً لو كانت الدكتورة فون هج — هلموث قد أفضت إليها بطرف من معناه الذي لا يخفى ! هـذه المرأة أنكرت الحلم ولم تعترف به مدفوعة بنفس الأسباب التي أدت في الحلم إلى استبدال العبارات الجارحة بدمدمة غير واضحة .

أما النزعات التي تخضع لتأثير الرقابة ، فإننا إذا اختبرناها بنفس هـذا القياس من النقد التحليلي فإننا نجد أنها عبارة عن نزعات لا تقبلها النفس لأنها تجرح شعور الإنسان من الوجهة الأخلاقية أو الاجتماعيـة ، وتدور في أغلب الأحيان حول أشياء لا يجسر المرء على التفكير فيها أو على الأقل يشعر باشمئزاز كبير إذا مرت بخاطره . وهذه الرغبات التي تؤثر فيها الرقابة فتبدو في الحلم بشكل محرف هي فوق كل شيء إظهار للأنانية الفظيعة التي لا حد لهـا . « فالذات » (Ego) يبدو أثرها دائمـا في كل حلم وهي تلعب فيه الدور الرئيسي وإن استطاعت في بعض الأحيان أن تتنكر تنكراً تاماً بالنسبة إلى المحتوى الظاهر للحلم . وهذه « الأنانية المقدسة » (Sacro Egoismo) للأحلام ليست في الواقع عديمة الصلة بالحالة العقلية التي تلزم للنوم أي قطع كل صلة بيننا وبين العالم الخارجي .

والذات التي تطرح عنها كل القيود الأخلاقية تحس أنها قد أصبحت على وفاق مع الرغبات التي يتطلبها الدافع الجنسي في الإنسان ، وهي الرغبات التي لا تقرها التربية الثقافية والتي تتنافى مع القيود التي تفرضها علينا الأخـلاق القويمة . فالطاقة الجنسية (Libido) لا يحول حائل بينها وبين الأشياء التي يقع عليها اختيارها لجلب اللذة ، بل هي في الحقيقة تفضل الأشياء المحرمة كزوجة رجل آخر مثلا ، أو ما هو أشد حراماً كتلك الأشياء التي اتفق البشر جميعاً على تقديسها كالأم والأخت في حالة الرجل ، والأب والأخ في حالة المرأة . وهذه الرغبات التي نعتقد أنها غريبة عن الطبيعة البشرية تظهر قوتها في قدرتها على توليـد الأحلام . والبغض والكراهية أيضا من الأشيـاء التي تنطلق في الحلم من غير قيد ، فالرغبة في الأخـذ بالثأر أو تمني الموت لمن هم أقرب الناس إلينا وأعزهم علينا في الحيـاة كالآباء والأبناء ، والأخوة والأخوات ، والأزواج والزوجات ليست قطعاً من الأشياء الغريبة غير المألوفة . هذه الرغبات التي تخضع للرقابة يبدو أنها تنبع من جحيم حقيقي فنحن عند ما نقف على معناها في أثناء اليقظة يبدو لنا أنه لا توجد رقابة كافية لردع هذه الرغبات . على أن الأحلام ليست مسئولة عن هـذا المحتوى الأثيم ، فأنتم بالتأكيد لم تنسوا بعد أن وظيفة الحلم التي لا ضرر منها بل النافعة هي المحافظة على النوم من عوامل القلق والإزعاج . فالإثم والفجور ليسا من طبيعة الحلم ، وأنتم في الواقع تعلمون أن هناك أحلاماً تعمل على تصريف رغبات مباحة ، أو حاجات جسمية ملحة . وصحيح أنه لا يوجد تحريف في هذه الأحلام ولكن ذلك لأنها لا حاجة لهـا به فهي تستطيع أن تؤدي وظيفتها من غير أن تجرح الشعور الأخلاقي أو الثقافي للذات . تذكروا أيضا أن درجة التحريف تتناسب مع عاملين فهي من ناحية تزداد كلما كانت الرغبات التي تحت المراقبة أشد بشاعة ولكنها كذلك تزداد كلما كانت مطالب الرقابة أشد صرامة . ولهذا فالرقابة الصارمة في الفتاة المحافظة التي تربت تربية قويمة قد تسبب تحريف أحلام نراها نحن رجال الطب ، تصريفاً مباحاً لرغبات جنسية لا ضرر منها ، وقد ترى الفتاة نفسها هذا الرأي عند ما يتقدم بها العمر عشر سنوات أخرى .

وفضلا عن ذلك فنحن لم نتقدم بعد في طريق النجاح لدرجة تجعلنا نستشيط غضباً للنتيجة التي وصلنا إليها من عملية التفسير فأغلب الظن أننا لم نفهمها بعـد كما يجب ، ولكن يتحتم علينا قبل كل شيء أن نعمل على تحصين هذه النتيجة ضد الهجمات التي قد تتعرض لها ، فإنه لا يصعب عليكم أن تدركوا النقط الضعيفة التي فيها . فنحن بنينا طريقتنا في التفسير على فروض فرضناها

من مبدأ الأمر وهي : أن الأحلام ليست خالية من المعنى ، وأن النظرية القائلة بأن العمليات العقلية قد تكون لاشعورية لبعض الوقت ، كما هو الحال في التنويم المغناطيسي ، يمكن تطبيقها أيضاً في حالة النوم الطبيعي ، وأخيراً أن من الممكن تحديد كل الأفكار المترابطة . فلو أننا تمكنا بمساعدة هذه الفروض من الوصول إلى نتيجة معقولة لحق لنا أن نستنتج من ذلك أننا كنا على صواب في فرضها . ولكن ما هو العمل والنتيجة التي وصلنا إليها كما ترون ؟ أظن أنه يبدو طبيعياً في هذه الحالة أن تقولوا : « هذه النتائج من التفاهة بمكان فهي مستحيلة الوقوع أو على أقل تقدير بعيدة الاحتمال ، فلا بد إذاً من وجود خطأ ما في الفروض التي فرضناها ؛ فإما أن الحلم ليس ظاهرة عقلية كما تخيلنا ، أو أنه لا توجد أفكار لاشعورية لا ندركها في حالتنا الطبيعية ، أو أن هناك عيباً ما في طريقة التفسير . أليس من الأفضل إذاً بل من الأسهل علينا أن نسلم بصحة هذا الافتراض بدلا من الموافقة على هذه النتائج البشعة التي تمجها النفس والتي نعترف بأننا وصلنا إليها عن طريق الفروض التي فرضناها ؟ » .

أجل يا سادة ، إني أوافقكم على أنه أفضل وأسهل ، ولكن ليس معنى ذلك أنه أصح . وعلى هذا فلننتظر قليلا ، فالمسألة لم تنضج بعد للحكم عليها ، وتعالوا بنا قبل كل شيء نقوى الاعتراضات التي تواجه طريقتنا في التفسير . فنحن لا نبالي كثيراً إذا كنتم لم تستسيغوا النتائج غير السارة التي وصلنا إليها ، وإنما المشكلة التي تواجهنا حقاً هي أن كثيراً من الحالمين لا يقرون بالنزعات والرغبات التي ننسبها إليهم عندما نقوم بتفسير أحلامهم بل ينكرونها إنكاراً باتاً مبنياً على أساس متين . فقد يقول أحدهم : « ما هذا الذي تزعم ! أتريد أن تبرهن لي على ما أنفقته على تعليم أخي وعلى بائنة أختي كان على غير رغبة مني ؟ أيعقل هذا وأنا الذي قضيت عمري كله أجد وأعمل لأربي إخوتي وأخواتي ولم يكن لي هم في الحياة إلا أن أقوم بواجبي نحوهم كأخيهم الأكبر حتى أفي بالعهد الذي أخذته على نفسي أمام والدتي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة ؟ » وقد تقول امرأة : « ما هذا ؟ أتريد أن تفرض علي أني أرغب في موت زوجي ؟ حقاً إن هذا كلام فارغ لا يصدق . فنحن لسنا سعداء في حياتنا الزوجية فحسب ، ولو أنك قد لا تصدق هذا ، ولكن بموته سأفقد كل شيء أمتلكه في هذه الحياة الدنيا . » أو قد يجيب شخص آخر بما يأتي : « أتريد أن تزعم أنني أضمر لأختي شعوراً بالرغبة الجنسية ؟ ولكن هذا مضحك حقاً فهي لا شيء بالمرة بالنسبة إلي ، فنحن لم نكن على وفاق في يوم من الأيام ، بل إنه قد مضت علينا سنوات لم نتبادل فيها كلمة واحدة » .

على أنه ما زال في إمكاننا أن لا نهتم كثيراً إذا لم يستطع هؤلاء الحالمون أن ينكروا أو يعترفوا بما ننسبه إليهم من نزعات ورغبات ، فقد نستطيع أن نقول . إن هذه هي بالذات الأشياء اللاشعورية التي لا يعلمون عنها شيئاً . ولكنهم عندما يحسون في أعماق قلوبهم بعكس الرغبة التي ننسبها إليهم بناء على التفسير ، وعندما يبرهنون لنا بسيرتهم وسلوكهم الدائم في الحياة أن الرغبة العكسية هي الغالبة عليهم فمن المؤكد أننا لن نحير جواباً . أيكون الوقت قد حان إذاً لكي نطرح كل الجهود التي بذلناها في تفسير الأحلام كشيء أدى بنا إلى نتيجة تافهة (reductio ad absurdum) .

(يتبع) **محمد جمال الدين حسن**



ثبـــــات عجيب

. أفٍّ لهـذا المنظار ! أزلت عنه التراب والصدأ ووضعته على أنفي بعد طول غيبة ، فعاد يريني من دنيا الناس ما يسوؤني في الكثير مرآه ، وإن كان ليسرني أن أراه ...

ولا يعجبن القارىء من هذا التناقض . فإن عجب فليعجب من هـذا المنظار الذى يقع بى على ما يضحك فى ذاته وإن كان خليقاً بأن يستثير من النفس كل ما أوصى به الله من صبر . وأكثر ما يريني منظاري ما يتصل بأقوى سبب بالتحمس والمتحمسين . والمصريون كما أعلم وتعلم أيها القارىء الكريم قوم شديدو التحمس سريعو الانفعال ، وإن كانوا رقيقى الحاشية أسخياء الطبع مرحى النفوس . فما أسرع ما ينقلب الرجل الذى تمازحه ويمازحك فى مثل ارتداد الطرف إلى غرٍّ هائج لأقل بادرة منك فى الحديث . وإننا لنتحمس فى كل فصل ... فى الشتاء وفى الربيع وفى هذا الحر الذى يزهق النفوس وكثيراً ما يكون التحمس لغير سبب ظاهر ، وهذا عندى أدعى صوره إلى إثارة الضحك كتحمس هذا الذى أريد أن أحدثك عنه ...

هو شاب فى نحو الخامسة والثلاثين ، بادى الفتوة ، مهندم الثياب ؛ تطالعك فى وجهه لأول وهلة أمارات الجد ، وترى فى جلسته ونظراته شيئاً من الصلف والصرامة ؛ وتحس من عضلاته المفتولة وصدره العريض المرتفع أنك أمام مصارع محترف ...

جلس فى « الترو » على مقعد فى الدرجة الأولى ، ولم يبلغ الزحام فى ذلك الصباح ما يبلغه أكثر الأيام من شدة : فالممر بين صفى المقاعد خال من الناس ، والباب إلى الدرجة الثانية لا يقف فيه أحد ... وفى مثل هذه الحال لا يتساهل محصلو الأجرة فى أن يركب الراكب حيثما اتفق له ...

وكان صاحبنا يطالع إحدى صحف الصباح ، وكنت على مقعدى تلقاءه ، أنظر إليه من وراء منظارى ، ولست أدرى لم أُلقى فى روعى أنى أمام متحمس من طراز عجيب ؟ ... أكان ذلك لما يبدو من صرامته وصلفه ودلائل قوته ؟ أم كان مرد ذلك إلى ما كان يرتسم على وجهه من علامات الاشمئزاز والنفور كلما نقل بصره فى الصحيفة من عنوان إلى عنوان ؟ فلقد رأيته لا تتشكل أساريره قط بما ينبىء عن ارتياح لشىء مما يقرأ ...

ومهما يكن من شىء فإنى شعرت بأنى حيال متحمس من متحمسينا الأشداء ...

وجاء محصل الأجرة وهو كهل نحيف يردد لفظيه المتلازمين : ورق ... تذاكر ؛ ويزيد عليهما بين حين وحين قوله : فلوس ، وينقر بقلمه على ظهور المقاعد أو على ظهر الخشبة التى تحمل تذاكره ...

ومشى نحو صاحبنا ، فلما بلغه كان قد بلغ فى ندائه قوله : فلوس . وناوله الفتى بطاقة يقرض منها بمقصه خانة فيساوى ذلك قرشاً ونصف قرش ، ولم يكن فى البطاقة إلا الخانة الأخيرة فقال محصل الأجرة لصاحبنا « ادفع الباقى » فلم يرد الفتى وعاد إلى صحيفته ينظر فيها كأن لم يحدث شىء.

ونفخ المحصل فى زمارته فوقف « الترو » ، واشتد الغيظ بالركاب جميعاً ، وصارت القضية على تفاهتها من قضايا الرأى العام ، ولكن فى مجالها الضيق هذا ... وأصر صاحبنا إصراراً شديداً وثبت ثباتاً عجيباً لا يكترث لشىء ! ...

وخطر لأحد الركاب حل سلمى فتقدم بالباقى إلى المحصل ؛ وهنا وثب الفتى من مقعده ينتهر هذا المعتدى على كرامته ويطلب إليه أن يضع نقوده فى جيبه . ونطق فإذا هو فخم اللفظ ينطق الزاى ظاء والتاء طاء والدال ضاداً ، وكان كلما انطلق منه لفظ تراجع المسكين الذى تقدم بالنقود خطوة وقد رد نقوده لتوه إلى جيبه وأخرج يده يقلبها فى الهواء بيضاء من فرط خوفه ، أما المحصل فقد رضى من الغنيمة بالإياب ؛ ونظرت ونظر الركاب فإذا ثلاثة أرباعه فى الدرجة الثانية وما بقى منه ففى الدرجة الأولى ، ولعله كان يتأهب ليغلق من دونه الباب ...

وذكرنى ثورة هـذا المتحمس بما كنت أقرأه عن « الدونتشى » إذ كان يرعد فى وجه موظفيه ... وجلس هذا « الدونتشى » المصرى لا يكترث لشىء ولا يجرؤ أحد أن يكلمه كلمة ... وكم بيننا من أمثال هـذا البطل ممن لا يحسبون لأحد

أعلام معاصرون :

محمد عبد المطلب

١٨٧٠ – ١٩٣١ م

للشيخ محمد رجب البيومى

يرى المتجول فى مديرية جرجا قرية « باصونة » الصغيرة ، حل بها لفيف من العرب الخلص الذين ينتمون إلى قبيلة جهينة وهى إحدى القبائل العريقة التى نزحت من الجزيرة العربية إلى مصر فى حقب مختلفة ومازالت تنتقل فى ربوع الوادى حتى استقر بها المقام فى أعلى الصعيد

ومنذ ثمانين عاما كان بهذه البلدة الهادئة بيت مرموق المكانة يقصده الوافدون للتبرك بصاحبه الصوفى الزاهد « عبد المطلب واصل » فهو شيخ وقور تنتظم فى بيته حلقات الذكر وتهب لديه النفحات الروحية الصافية ، ثم هو عالم متفقه فى دينه يعظ الناس كل مساء بما وعاه من الكتاب والسنة ، فيهز أوتار القلوب . ويأخذ بمجامع العقول ، هذا إلى عربيته الخالصة ونسبه الصريح

ولد شاعرنا الكبير سنة ١٨٧٠ فى هذا البيت الطيب ، فتربى تربية دينية قويمة . وطبع منذ نعومة أظفاره على الخلال العربية الحميدة ، وطبيعى أن يسلمه والده إلى معلم القرية فيحفظ القرآن الكريم ، ويلم بقواعد القراءة والكتابة ، حتى إذا فرغ من ذلك أمكنه من الفقه الإسلامى والحديث النبوى فارتشف ما قدر عليه من معينهما الرائق ، ثم أنس من نفسه المقدرة فجلس يعظ الناس مكان والده ، وهو بعد فى مبدأ العقد الثانى من حياته الزاهرة ، فكان من يسمعه فى هذه السن الباكرة يؤخذ بلباقته الفائقة ، ويدعو له بالنجاح والتوفيق

وكان العارف بالله الشيخ اسماعيل أبو ضيف شيخ الطريقة يزور مريده « عبد المطلب واصل » فى « باصونة » من حين إلى آخر ، فشاهد نجله الصغير يعظ الجمع الحافل كعادته ، وهو لايزال طرى الأملود غض الإهاب ، فتوسم فيه النجابة والذكاء ، وزاد به إعجابه فعرض على والده أن يصحبه إلى القاهرة حيث يرتشف العلم الغزير من منهله الرائق بالأزهر الشريف ، وكانت فكرة حميدة تلقاها الوالد بالترحاب والقبول ، ولم يمض زمن وجيز حتى كان الواعظ الصغير طالبا بالأزهر يقضى فيه بياض نهاره ، فإذا جنه الليل توجه إلى منزل حاضنه الشيخ اسماعيل فلازمه حتى الصباح

وإذا كان الفتى قد شهد مجالس التقوى فى صورة مصغرة عند والده بالصعيد فإنه فى منزل حاضنه الأكبر الشيخ أبى ضيف يرى الصورة المكبرة لهذه المجامع العامرة ، ويستمع إلى القصائد الصوفية التى تنشد فى الحلقات كل ليلة ، فيحس لها رنينا مشجيا يدعوه إلى تفهمها واستظهارها حتى كونت لديه ملكة حساسة تطرب للتوقيع الجميل ، وتتذوق المعنى الرائع ، ومهما يكن من

حساباً مهما بلغت شناعة ما يصنعون ...

وكنت أكتم ضحكى تلقاءه ، وأخشى أن يغلبنى ، فأتأهب لألحق بالمحصل وأوصد من خلفى الباب ؛ ثم أشغل نفسى بالتفكير فى أمره ، فأقول لو أن لهذا « الدوتشى » ولأمثاله من المتحمسين الأشداء مثل هذا الثبات فى الجد من الأمور ، أو مثل هذا الرفض والإباء إذا دعاهم رؤساؤهم إلى غير مايحبون ، لأخرجت أمتنا من الأبطال ما لم تخرج أمة مثله فى غابر الزمن وفى حاضره ، ولكن أكثر تحمسنا يأتى حين لا نحتاج قوة ، وكثيراً ما يكون فى التافه من الأمور ..

وظل هذا « الدوتشى » على ثباته وإصراره ، وظل القطار فى موضعه والناس فى العربات الأخرى ينظرون فى ساعاتهم ويطلون من النوافذ ويظهرون أشد علامات التبرم والسخط ، ويطل بعضهم من الباب ينظرون إلى هذا الذى لا يبالى بشىء .

وجاء قطار آخر وتشاور المحصلون فيا بينهم ؛ ثم انطلق بعد حين ذلك القطار الذى يحملنا ويحمل الدوتشى حتى وقف على إحدى المحطات ، فنزل مزهواً بالنصر ومشى مرفوع الهامة موفور الكرامة إلى حيث يتضاءل ويتصاغر بين يدى رئيسه .

الخفيف

شيء فقد كانت هذه المقطوعات الصوفية أول حافز دفعه إلى الانكباب على الدواوين الشعرية فى ميعة صباه يستوضح غامضها ويتفهم معانيها حتى خلقت منه فيما بعد شاعراً فحلا جزل العبارة فخم الأسلوب !

ولقد كان الطالب الأزهرى مبرزا بين لداته ، مشمولا بعطف أساتذته ومشايخه . إذ أن المبادىء الفقهية التى حصلها عند والده قد مهدت له أسباب التفوق والنبوغ ، ودفعته إلى التحصيل فى لذة وشوق ، فأخذ يستوعب كل ما يلقى عليه أتم استيعاب حتى نضج عقله فى مدى سبع سنوات قضاها فى الأزهر المعمور ، ثم هو لا يكتفى بما يأخذه من دروس قيمة فى اللغة والدين بل يرتب لنفسه جزءا خاصاً من روائع الشعر العربى يحفظه يوماً بيوم ، حتى خرج من الأزهر إلى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٩٣ م وعنده من غرر القوا فى ثروة ثمينة ساعدته على النظم فى مختلف الأفانين الشعرية ، وجعلته يثق بنفسه ويعتد بملكته أكمل اعتداد

ولقد هيأت له الظروف فى سنته الأولى بدار العلوم فرصة طيبة لمع فيها نجمه ، فقد وقف يرثى فقيد المعارف على باشا مبارك فى حفل عام أقيم لتأبينه فأتى بالرائع المعجب من الأبيات الرصينة ، وخرج أساتذته وزملاؤه الذين سمعوه ينثرون عليه أكاليل الثناء ، ويضربون به المثل فى قوة الشاعرية وصفاء القريحة ، مما حفزه بقوة إلى الإطلاع الدائب ، والإنتاج الثمين

وكان المرحوم الأستاذ الشيخ سليمان العبد إذ ذاك مدرساً فى دار العلوم وله ميل شديد إلى النظم ، فكان لا ينشىء قطعة إلا عرضها على تلميذه مستنيراً برأيه أمام زملائه ، وكثيراً ما ينزل على إرادته فيحذف ويثبت كما يملى عليه تلميذه الناشىء ، فإذا ما نشر قصيدته - وكان دائماً يكتب فى الوقائع المصرية - قرأها على تلامذته معترفا بما لعبد المطلب من أثر جميل

قضى الشاعر أربع سنوات فى دار العلوم وتخرج منها فى سنة ١٨٩٦ متوجا بالنجاح ، فنجا من قيود الدراسة التعليمية ، وهى كما نعلم — محصورة فى علوم خاصة ومناهج محددة ، قد لا يكون للشاعر فى بعضها رغبة ملحة أو حاجة ماسة ، أما الآن فهو حر فيما يقرأ ويدع ، وهنا نجد عبد المطلب قد عكف على الكتب الأدبية القديمة يستخلص لبابها ويستقطر أشعارها ، ويروى أخبارها ، ومن حظه أن عين مدرساً بمدرسة سوهاج الإبتدائية وبها يومئذ صفوة مختارة من عشاق الأدب ورواد المعرفة ، أذكر منهم المرحومين الأستاذ عبد الرحمن قراعه ، وعبد الله بك الطوير وعلى بك الكيلانى ، فنشأت بينهم وبين الشاعر صداقة وليدة تمهدها الأدب بمائه العذب حتى غدت دوحة مورقة وارفة فكانوا يعقدون مجالس السمر الأدبى حافلة بالنادرة الطريفة والملحة البارعة ، فإذا جاء دور الشعر فمحمد راويته الفذ ومناجيه الحكيم ، وكثيراً ما يقترحون عليه أن ينظم فى معنى معين فيتحفهم بما يريدون مستعينا ببديهته الواتية وقريحته المتوقدة ، وكان الشيخ قراعة أحبهم إلى قلب شاعرنا المجيد ، وإنك لتجد فى ديوانه قصائد عديدة ممتازة قالها فى صديقه الوفى تنطق بالود الخالص ، وتنبىء عن الحب الأكيد ! . .

ولقد نظم الشاعر فى هذا العهد طائفة محمودة من الشعر السهل الواضح تتناسب مع تلامذته فى المدرسة الابتدائية ، فجذبهم إلى الشعر يتذوقونه ويحفظونه بعد أن كانوا لا يجدون منه غير المغلق المستعصى على مداركهم الناشئة مما خلف الأولون ، فكان عبد المطلب بهذا أول من خط الصحيفة الأولى فى كتاب الشعر المدرسى فى وقت صدف فيه التلاميذ عن كل ما يتصل إلى العربية بسبب ، وإنك لتقرأ أبياته فى ذلك ، فتراها جليلة الغرض ، رائعة المغزى ، سهلة التناول ، سلسة النسج كأن يقول

إن كنت تبغى المعالى فالعلم أهدى سبيلا
فأحقر الناس من قد طوى الحياة جهولا
تراه بالجهل يمشى بين الأنام ذليلا
نحن الذين اتخذنا نور العلوم دليلا
لعلنا فى المعالى بها نجر الذيولا

وهو لا يكتفى بحثهم على العلم فى هذا النسق الجميل ، بل يجذبهم إلى الأدب بنوع خاص فهو عنده كل شيء فى الحياة ، اسمه حين يصف لتلامذته القلم فيقول

إذا اهتز فى طرسه معجبا أذل شعوبا وأحيا شعوبا
فيسعد قوم به تارة وقوم به يصطلون الخطوبا
وطورا تراه يفض الجموع وطوراً تراه يثير الحروبا
وطورا ينادى الورى سائلا وطوراً يرد عليهم مجيبا

وفى ديوانه مقطوعات عامرة من هذا الطراز الرقيق ، ويقينى أنه أول من حفز صديقه وتلميذه الأستاذ الهراوى إلى سد هذا الفراغ فى الأدب ، فنظم ما نظم من شعر الأطفال ترضية لأستاذه الحبيب

(البقية فى العدد القادم) **محمد رجب البيومى**

الأدب والفن في أسبوع

مدارس الشعر :

نلاحظ في الأنباء الأدبية الواردة إلينا من بعض الشقيقات العربية في هذه الأيام ، وفيما يكتب عن الحالة الأدبية فيها ، كثرة ما يقال من مثل « أدباء الجيل الجديد » و « شعراء المدرسة الحديثة » ، وقد يقابل هذا بنحو « الأدب القديم » و « الأدباء المحافظون » .

وأكثر ما نجد ذلك في الحجاز ، وقد وفدت علينا أخيراً طائفة من دواوين الشعر من إنتاج صفوة من الشباب الحجازيين الناهضين ، حوت شعراً جديداً جذب الأنظار إلى منازل وحى الشعر العربي الأصيل . وليس عجيباً أن تتردد بينهم كلمة الجديد وكلمة القديم ، لأن جيل الكهولة هنالك لم يكد يجاوز حدود عزلته للمشاركة في نهضة الأدب المصرية في سائر البلاد العربية .

وفي مصر لا نزال نرد الشعراء إلى مدارس تنسب إلى الجديد وإلى القديم ، ولكن ذلك خفت حدته في السنوات الأخيرة وقل ترداده ، وكان أمره مستشرياً في أوائل هذا العصر رداً فعل لعصر الجمود السابق له ، ثم تهيأت الأذهان واستقرت بها الحقائق الأدبية العصرية ، فتدانت المدارس واجتيزت الحدود ولم تعد بينها فروق كبيرة ، وأصبح الاختلاف بين الخصائص الشخصية أكثر من الاختلاف بين الخصائص المدرسية .

لذلك لم يكن الناس يتوقعون ما قاله الأستاذ العقاد عن لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول للغة العربية في الحفل الذي أقيم منذ أسابيع لإعلان نتيجة المسابقات الأدبية ، فقد نسب الأستاذ الشعراء إلى مدرستين : ابتداعية حديثة ، واتباعية سلفية ، على أن الأستاذ نفسه أشار إلى متاخمة المدرستين واقتراب خصائصهما .

وقد قرأت أخيراً من الدواوين الحجازية الجديدة ما يسوغ لي أن أسجل هنا أن الشعر الحجازي الجديد لا يلتزم حدود مدرسة معينة ، وهو يسير في ركب الأدب العربي الحديث مقارباً ومؤاخياً ، وأن الشعراء الشباب هناك ليس بينهم وبين أمثالهم في مصر وفي سائر البلدان العربية كبير اختلاف إلا فيما لا بد منه من بعض السمات المحلية .

الشعر والاستعمار :

ذكرنا مقال الأستاذ أحمد أمين بك الذي كتبه في عدد (الثقافة) الأخير بعنوان « الأدب يناهض الاستعمار » والذي بين فيه أن سقوط أمم الشرق في يد الغرب جعل الناس يشعرون أن الحرب الحقيقية بين المستعمَرين والمستعمرين بدأت بدخول الأجانب بلادهم ، لا أنها انتهت بدخولهم ، فكان الأدب هو وحده المعبر عن شعورهم ، ثم بين اتجاه البارودي في شعره إلى مسائل عامة يعرض فيها قضية الوطن واستثارة الهمم ، وكذلك شوقي وحافظ اللذان أذكت زيادة الوعي القومي في عصرهما حرارة الوطنية في شعرهما ، وكان يناهض الاحتلال إلى جانبهما شعراء آخرون أمثال أحمد الكاشف وأحمد محرم وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب ومحمد الهراوي

ذكرنا ذلك بما يلاحظ على شعرائنا الأحياء من ضآلة نصيبهم في ذلك المضمار وقعودهم عن مكافحة الاستعمار ، وخصوصاً في هذه الآونة التي استفحلت فيها النازعات بيننا وبين المستعمرين ، وبلغ فيها الوعي القومي مبلغاً كبيراً

فهل ترجع قلة محصول شعرائنا في هذا الميدان إلى قصور شاعريتهم ، أو ترجع إلى أن الشعر يتجه ، في آخر اتجاهاته ، اتجاهاً غنائياً ، فلا يحفل بحماس الوطنية ولا يعنى بشئون السياسة ؟؟

سفير عربي :

حدثنا الأستاذ محمود تيمور بك عن زيارته لدار الكتب الأهلية في نيويورك في أثناء رحلته إلى أمريكا في العام الماضي ، قال يصف تلك الدار : « إنها مبنى عظيم يحتوي على حجر رحبة وقاعات فسيحة ، وقد جبت أرجاءها فاستهوتني تلك الطرافة والتجديد في كل ركن ، وذلك التيسير وسرعة الإفادة في كل

موضوع ، وزهانى أن تقع عينى هنالك على قسم عربى ملحوظ الجانب بين سواه من الأقسام ، هذا سفير الشرق العربى يتربع هنا فى مهابة وإجلال ... ألا تراه أعز مكانا وأحمد أثرا من مقاعد تعد للشرق فى هيئة الأمم أو مجلس الأمن أو غيرهما من هيئات السياسة والشئون المالية ومجامع الشرف والتكريم ؟»

والأستاذ تيمور يعمل فى تأليف كتاب عن هذه الرحلة اسمه «أبو الهول يطير» يفرغ منه قريبا .

مسابقة المجمع اللغوى :

اجتمعت لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول للغة العربية يوم الاثنين الماضى ، ونظرت فى موضوع المسابقات الأدبية لسنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، وقد تناقشت اللجنة فى موضوعات الشعر والقصة والبحوث من حيث التقييد والإطلاق، وكان بعض الأعضاء قد اقترح أن تعين موضوعات جائزة الشعر والقصة مثل البحوث ، ولكن رئى عدم الأخذ بهذا لأن تحديد الموضوع وإن كان مقبولا فى البحوث الأدبية فإنه لا يستحسن فى الشعر والقصة ، إذ لا تنأى أفسد لهما من صنعهما عن طريق التعمل والتكلف

واقترح أحد الأعضاء النص على أن الإنتاج المقدم للجنة يجب ألا يكون قد سبق تقديمه للمجمع ولا لأية هيئة علمية أخرى ، لأن مثل هذا الإنتاج لا ينبغى أن يجاز مرتين ، وما دامت هيئة علمية محترمة قد سبق أن أجازته فمن الحرج مخالفتها ، فنوقش هذا الاقتراح بأنه يجب قصر النص على أن لا يكون الانتاج مما سبق أن أجازه المجمع ، أما ما سبق لهيئة علمية أن أجازته فلا ينبغى أن يكون هناك مانع من قبوله ، وقد جرت على ذلك المجامع الأوربية ثم استقر الرأى على أن ما يقدم للمجمع يجب ألا يكون مما سبق أن أجازه المجمع. أما النص على ألا يكون مما سبق أن أجازته هيئة علمية محترمة فلا يذكر وتترك المسألة مطلقة

وقد تقرر تخصيص مبلغ مائتى جنيه لأحسن إنتاج من الشعر العربى الفصيح ، ومبلغ مائتى جنيه لأقوم قصة وضعت بالعربية الفصحى لا تقل عن مائتى صفحة من القطع المتوسط ، على ألا يكون كل من الشعر والقصة قد سبق تقديمه للمجمع

وتخصيص مبلغ ٤٠٠ جنيه للبحوث الأدبية على أن توزع على النحو الآتى :

ا — ٢٠٠ جنيه لأحسن بحث بالعربية الفصحى عن البيئة الأدبية فى المدينة أيام بنى أمية

ب — ٢٠٠ جنيه لأقوم بحث بالعربية الفصحى عن مهيار الديلمى وشعره

على ألا يقل البحث المقدم عن مائتى صفحة من القطع المتوسط وترسل إلى المجمع نسختان من الإنتاج الأدبى المقدم ، مطبوعتان أو مكتوبتان على الآلة الكاتبة فى موعد لا يتجاوز نوفبر سنة ١٩٤٧

التتويج الأدبى :

كان مجمع فؤاد الأول للغة العربية قد قرر فى سنة ١٩٤٥ «أن يتخذ سنة جديدة فيتوج أعظم الآثار الأدبية كل عام بتقديره ومنح صاحبه جائزة كما سيصنع مع الأستاذ خليل بك مطران»(١) وتم فعلا بعد ذلك تتويجه للأستاذ خليل بك مطران ومنحه جائزة ٨٠٠ جنيه . وكان ضمن قراراته فى المسابقة الأدبية الماضية تتويج الإنتاج القصصى للأستاذ محمود بك تيمور ومنحه جائزة مائة جنيه

وقد نظرت لجنة الأدب أخيراً فى هذا الموضوع فرأت عدم تتويج أحد فى هذا العام، وقررت مبدأ جديداً . أن يكون التتويج معنوياً لا مادياً أى تقديراً أدبياً فحسب ، فلا يمنح المتوج جائزة مادية ، على أن يكون التتويج حسب مشيئة المجمع واختياره من تلقاء نفسه ، لا بناء على طلب صاحب الآثار الأدبية

المخطوطات العربية :

من مشروعات اللجنة الثقافية بالجامعة العربية إنشاء معهد لإحياء المخطوطات العربية ، ويجرى العمل فى سبيل تصوير المخطوطات العربية القيمة وجمعها فى هذا المعهد .

وهذا مشروع جليل يستحق أكبر العناية ، فلا تزال فى

(١) نص قرار المجمع سنة ١٩٤٥

المكتبات العربية أسفار مخطوطة عظيمة الشأن ، منها مراجع يلقى الدارسون عناء كبيراً فى نبش قبورها ، كالمنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، والمغرب فى حلى المغرب .

وتلك المراجع المخطوطة هى أهم ما يستعين به من يضع مؤلفاً فى أحد الموضوعين اللذين قررت اللجنة الثقافية وضع جائزتين للتأليف فيهما ، وهـذا الموضوع هو « تاريخ الأمة العربية من سقوط بغداد إلى أول القرن الثالث عشر الهجرى » فجل تاريخ هذه الفترة مما حوته المخطوطات .

وقد أنشأت الجامعة المصرية منذ سنوات كرسياً للأدب المصرى ، والمقصود أدب تلك العصور ، ولا شىء أعون على دراسته من إحياء تلك المخطوطات ، فغاية ما نرجو أن يكون حظ الجامعة العربيـة من التوفيق فى ذلك أحسن من حظ الجامعة المصرية .

الإذاعة العامة :

وأخيراً وافق مجلس الوزراء على مذكرة وزارة الشئون الاجتماعية الخاصـة بإعادة تنظيم محطة الإذاعة ، بعد أن آلت إدارتها إلى الحكومة . ومما تضمنته هذه المذكرة تأليف لجان ثقافية وفنية لاقتراح ما يذاع من الموضوعات واختيار المحدثين والفنانين وما إلى ذلك .

والمأمول من هذا التنظيم الجديد أن يحقق ما يرجى من محطة الإذاعة بحيث يقوى برامجها ويتلافى عيوبها التى استهدفت للنقد فى الأيام الأخيرة . ومهما يكن من شىء فإنا لا نستطيع أن نستمر على غض الطرف عن هـذه العامية المتفشية فى الإذاعة المصرية ، فى التمثيليات وفى الأحاديث ... وليس الأمر مقصوراً على العامية منها ، بل نسمع كثيراً من المحدثين بالعربية يلحنون ويخطئون فى النطق وفى التعبير ، وكثيراً ما يقع ذلك ممن يدعون من الوزارات المختلفة للتحدث فى موضوعات فنية . فلم لا تكون هناك رقابة لتصحيح لغة الأحاديث وتمرين المحدثين على النطق الصحيح ما داموا لا يهتمون بتقويم ألسنتهم فى لغتهم كما يهتمون بتقويمها فى اللغات الأجنبية ! .

وقد انفردت محطة الإذاعة المصرية من بين سائر المحطات العربية بالإكثار من الإذاعة العامية ، فلا تكاد تجد فى محطة غيرها حديثاً ولا تمثيلا إلا بالعربية الفصيحة .

فيجب أن يلتفت القائمون على أمر الإذاعة فى عهدها الجديد إلى أنه ، قبل تقوية صوتها ليسمع جلياً فى العالم العربى كله ، يجب أن يكون هذا الصوت بلسان عربى مبين .

« العباس »

من صور المجتمع المصرى :

عرس فى مأتم

للاستاذ على الجندى

كانت الجنازة تسير فى خطى وئيدة إلى مدينة الأموات ! وفى أذيالها نوائح متشحات بالسواد ، يتبارين فى شق الجيوب ولطم الخدود ! ومن بينهن فتاة فى طراءة السن ، بيضاء اللون ، فاحمة الذوائب ، ساجية العينين ، مخطفة الخصر ، تأطر فى مشيتها وتبالغ فى الإرنان والنحيب ! وتحيل على وجنتيها باللطم فيكاد يبض منهما الدم ! حتى شق ذلك على صواحبها فقلن لها : ارحمى شبابك يا « جل » .

وقد كنت أظن بادىء النظر أنها تصدر فى ذلك عن كبد حرى وفؤاد مقروح ، ولكنى رأيتها فى سر من رفيقاتها تثنى سالفتها ، وتخزر عينيها ، وتفتر عن بسمات الدل والإغراء ! فأيقنت أن هذا الدمع زيف ، وأن ذلك الحزن مصنوع لا مطبوع ! يا للمفارقات العجيبة ! !

قطعة زاخرة من الحياة تدلف فى ركاب الموت ! ونغم حلو شجى يرتفع بين النشيج والعويل ! وبسمة وضيئة ترف على عبوس الأحزان ! !

لقد استطاعت هذه الحسناء اللعوب أن تذهل الناس عن جلال الموت ! ولكنها استطاعت كذلك أن تصلهم بالصانع الحكيم الذى أبدع هذه الدمى الفاتنة فأدقها وأجلها !

وقد أوحى إلى هذا المشهد الفريد هذه الأبيات ولكن أشهد أن ما بقى فى نفسى من ذلك أعظم وأجل ! !

لا تنوحى كما ينوح النساء   أنتِ نُوّر ، وهن طين وماء
إنتِ عرس تطنى على المأتم الصا   خب منه الأنغام والأضواء
أنت تحت الخشوع فى موكب المو   ت دلال ، وفِتنة شعواء
أنت بين النحيب، واللوعة الحرى   م نميم ، وبهجة ، وصفاء
أنت بين الأحزان ، والألم المشـ   ـبوب زهر ، وخمرة ، وغناء
اتقى الله فى خدودِك ، فالور   د من اللطم جذوة حمراء
اتقى الله فى عيونِك فالنر   جس أدمت أجفانه الأنداء
وبلاء أن يذبل النرجس الغض   م ويلهو بوردتيك الفناء
كيف تأسى مَن وجهها فى الأسى المبـ   ـرح روْح[1] ، وسلوة ، وعزاء

(١) راحة .

كيف تبكى من ثغرها لمعة البـ   ـشر إذا جدّ بالحزين البكاء
لا تقولى : أبكى رياء ، فما يحـ   ـسن من حسنك البرىء الرياء
لا تقولى : هى المداراة ، فالنا   س جميعاً — إذا سلمت — هباء
ما عهدنا أن يخمش (البدر) خديـ   ـه وأن تسكب الدموع (ذكاء)
جلّتِ الصنعة العلية أن يُلـ   ـطم وجه يشع منه الضياء
فابسمى للحياة ، فالحسن بسا   م ، وقبيح أن تَمْبِس الحسناء
وامرحى فى الشباب فالفطرة البيـ   ـضاء تأبى أن تستكين الظباء

***

أى نعيش سارت تشيعه الشمـ   ـس وتمسى وراءه الجوزاء
شغل الحامليه ظبى رخيم   لاعب بالعقول كيف يشاء
قد ضمنا أن ينزل «الخلد» ميت   لمست عود نعشه « حوْراء »
كيف لم تعبق الجنازة[1] مسكا   من شذاها، وتورق «الحدباء»

***

حسبكِ الله ! قد نسينا بك المو   ت ، والموت حولنا ضوضاء
بين سود الثياب ، والفاحم الفيـ   ـنان وجه ، له الوجوه فداء
عجب الناس أن يروا فى الضحا الما   تع بدراً تحفه ظلماء
وصهاة تحت الأسى تتثنى   خوط بانٍ تهزه النكباء
كلما ماس عطفها انسدل الشعر   م فغطى على الصباح المساء
ونزّت رمانتان من الما   ج ، وماجت حقيبة بجراء
ترسل الصوت كالبغام ، وترنو   بعيون ، تفتيرها صهباء
وتندى خدودها عبرات   تصف الحزن ، وهى منه براء
تصنع الدمع صنعها الدّلّ ، والتمـ   ـثيل فن تجيده « حواء »
وهى حيناً تجلو جُمانَ لِثات   تتمنى سلافها الندماء
بسمات بين الدموع كما افترت   م عن البرق مزنة وطفاء
كل شىء فيها يناديك أن تخـ   ـلع ثوب الوقار حتى البكاء
ومن الغانيات مَن كلها فن   م أنيق ، وكلها إغراء
ما عليها لو حجّبت ناظريها   فاستراحت من الجوى الأبرياء
دينها الفتك ! لا السوابغ خرز   من ظباها ـ ولا التروس وقاء

***

سمت طرفى الإغضاء عنها، فما صا   نى ، وصعب عن مثلها الإغضاء
ليت شعرى ما رابنى من جمال   هو لله حجة بيضاء

(١) بالكسر : الميت .

إليهـــا ...

للشـــاعر إبراهيم محمد نجا

طائر الليل وراء الأفـق طارا … وبدا الفجر كأحلام العذارى
فتعـــالى خفنى من لوعتى … أوفزيديها — إذاشئت — أوارا
إن تكن نارك تكوى مهجتى … حبذا نارك فى المهجة نارا
أنا يا هند خيـــال شارد … سئم الناس ، كما عاف الديارا
عشت فى الدنيا غريباً حائراً … هائماً فى كل واد ، مستطارا
يستوى عندىَ يومى وغدى … وكذا أمسىَ ليلا ونهارا
ملك اليأس زمامى ، فأنا … لا أسير اليوم إلا حيث سارا
لا تلومينى ؛ فكم من أمل … طاف حولى وتغنى ، ثم طارا
معزفى باك ، وقلبى خافق … لج فى المـاضى حنيناً وادكارا
فتعـــالى يتغنى معزفى … بالهوى طوعاً، وبالحسن اختيارا
أو فعودى بى إلى الماضى الذى … غاب خلف الأفق عنا وتوارى
كلمـــا نبّـه قلبى طيفُـه … لم يطق قلبى من الشوق اصطبارا
أين منى الآن أفق ضـاحك … كان للحب مراحا أو مطارا ؟
أين منى الآن وكر هادىء … حوله الجدول ينساب نضارا ؟
ملك الحب كســـاه مطرفاً … وكسته ربة الطهر شـــعارا
طالما زرناه يا هنـــد معا … ورجعنا منه لم نخلع عـذارا
وغرسنا بذرة الحب به … ثم عـــدنا نجتنيناها ثمارا
حبذا الحب ملاكا طاهرا … لا يرى إثما ، ولا يبصر عارا
حبذا الحب منارا فى الدجى … يسكب النور على دنيا الحيارى
حبذا الحب نسـيما عاطرا … يرتقى بالروح حتى يتوارى
حبـذا الحب عيونا تلتقى … فى ظلال الشوق سرا أو جهارا

***

تلك دنيا بعد العهد بها … ونأت عنا مقاما ومزارا !
أفما زالت على عهد الهوى ؟ … أم أحال الدهر مغناها قفارا ؟
أين منى الآن روح طاهر … كان فى ظلمـاء أيامى منارا ؟
أين منى الآن جسم باهر … يأسر اللب انعطافاً ونفارا ؟
أين منى الآن ثغر ســـاحر … طاب كالزهرة عطراً وافترارا ؟
يسكب الحسن عليـــه نوره … والفراشات إليـــه تتبارى
رفرف الحب عليـــه طائراً … والمنى رفت حواليـــه إطارا
أين منى الآن شعر ناعم … ضـلّ قلبى فى ثناياه وحارا ؟
كلمـــا مرت عليه نسمة … داعبته ، فتمالى واســـتدارا
أين منى الآن صوت حالم
يترك الأطيار فى الروض سـكارى ؟
لى منـــه نشوة ما تنتهى … أترانى أحتسى منـه عقارا ؟
أين ؟ ... لاشىء سوى دمع الأسى
وطيوف اليأس فى قلبى حيـــارى !

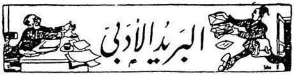
***

من لباك ليس يرقا دمعـــه … ومحب ضـيع العمر انتظارا ؟
طالمـا حن إلى المـاضى الذى … غاب خلف الأفق عنه وتوارى
آه يا قلبى ! كفانا حـيرة ! … وكفانا أيها القلب عـثارا !
طُوى الماضى ! فيا قلبى اتئد ! … عبثا تطلب للمـاضى انتشارا !
لم يعد ماضـــيك إلا ذكرا … فأحىَ فى الماضى حنيناً وادكارا

ابراهيم محمد نجا

رب حسن هدى إلى خالق الحـ … ـن حيارى لم يهـــدهم أنبياء
ودعاء باسم المـــلاحة يزجى … قد تلقته بالقبـــول السماء
شق النـاس بالجمال ، ويشقـ … ـى تحت ظل السـعادة ـ الأغبياء
ليت من أشعلوا البسيطة ناراً … عرفوه ، فـــلم يصبنا البلاء
لو دَرَوْا سِرّه أظلهمو السلـ … ـم ورفّت عليهمـــو النعماء

على الجندى



الجمهورية اللبنانية تكرم النشاشيبي :

سبقت الجمهورية اللبنانية إلى تكريم إمام العربية في هـذا العصر العلامة المحقق الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي فأهدت إليه وسام الاستحقاق اللبناني الذهب تقديراً لجهاده الأدبي الدائب المثمر سبيل وحدة العرب ونهضة العربية. وليس بدعا أن يسبق لبنان دول العروبة إلى أداء هذا الواجب لرجل قصر جهده وفكره ووقته وماله على خدمة الأدب العربي زهاء أربعين عاماً ، فإن لبنان يجرى في هذا السبق على أعراق آبائه . فقد كانوا حين تترك العرب وجعلوا يدرّسون نحو العربية وصرفها باللغة التركية في مدارس العراق والشام ، يتعصبون هم للغة القرآن فيجددون قديمها ، وينشرون أدبها ، ويصدرون الصحف بها ، ويصنفون المعاجم لها ، ورحم الله آل البستاني وآل اليازجي !

كلمة أخيرة في أبي هريرة :

قرأت ما كتبه الأستاذ عبد الحسين شرف الدين في العدد ٧٢٤ من مجلة الرسالة ، فوجدته يدعى أنا معشر أهل السنة نذهب إلى عصمة الصحابة من الجرح المسقط لعدالة المجروح ، وهـذا ليس بصحيح ، لأن العصمة خاصة عندنا بالأنبياء ، وعدالة الصحابة عندنا لا ترجع إلى عصمتهم ، لأنه يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم ، وإنما ترجع إلى ما كان من تحرزهم في دينهم ، وما يأخذه أخواننا من الشيعة عليهم يرجع إلى رأيهم في الخلافة ، ومثل هذا لا تسقط به عدالة .

ثم وجدته يعود إلى حديث دخول أبي هريرة على رقيـة ، وإلى تصحيح الحاكم لسنده ، مع أن البخارى أعله بالانقطاع ، ومع أني أثبت له ضعف هذا السند في روايتي الحاكم ، واعتمدت في هذا على كتاب ميزان الاعتدال للذهبي ، وقد ذكر الأستاذ أني ضعفت هذا السند بما لا يتنزه عن مثله أسانيد كثير من الصحاح ، وفاته أنه يكفر أبا هريرة بهذا الحديث ويتهمه بوضعه ، ولا يصح تـكفير مثل أبي هريرة إلا إذا لم يكن مطعن ما على غيره ، فإذا كان هناك مطعن ما على غيره لم يصح تكفيره ، لأن التكفير لا يثبت إلا بقاطع فيه .

على أن تصحيح الحاكم لسند ذلك الحديث لا يفيد الأستاذ فيما يريده من إثبات وضعه ، ومن أن واضعه أبو هريرة ، لأن الحديث الذي يصح سنده دون متنه لا يكون موضوعاً ، وإنما يكون في متنه غلط أو نحوه ، كما تقرر هذا في علم مصطلح الحديث ، أما طلب الأستاذ أن ينظر في غير هذا الحديث من كتابه فيمنع منه أن مجلة الرسالة لا تتسع له .

عبد المتعال الصعيدي

إلى الأستاذ الطنطاوي (١) :

أتقول - أيها الأستاذ الفاضل - إن « مؤلف الكتاب - السبتي - لا يسوق ما ساقه على أنه رأى له ، بل على أنه معتقد الشيعة وأن المتمد عندهم ، وأنت تصدقه في ذلك ما لم ترَ علماء الشيعة يكذبونه وينكرونه عليه » .

فتعال معي - حفظك الله - لأدلك على الشباب المثقف في مدينتنا - التي تعدُّ أهم مراكز الشيعة في العراق - لترى أنه لا يعير هذه التقاليد والمقائد اهتمامه بل هو راغب عنها ، ثائر عليها ، لا يهتم بهذه النعرة - الطائفية الأثيمة - الجالبة الشر إلينا وعلينا ، لأنه عرفها من عمل « المستعمر » الغاشم وأذنابه ، ودرى أنها ليست نتيجة للتفكير .

وكُنْ على يقين ثابت من قولي من أن هذا الكتاب - تحت راية الحق - الذي كان بين يديك قبل مدة وقرأته وعلقت عليه ، لم يقرأه شباب الشيعة المثقف عندنا ، ولا يحاول أن يطلع على كتاب - كهذا - يحوى بين دفتيه سفساف الأمور ، وأشياء لا تجلبُ للمسلمين سوى الضرر . وأنهم عجبوا منك حينما طرقت هذا الموضوع ، في صحيفة تخدم الأدب والعلم والفن ! وحقيق بنا أن نعجب !

***

(١) تعليق على مقال « إلى علماء الشيعة » الذي نشره في عدد الرسالة ٧٢٢ .

عفواً ، « إن إخوانكم الشيعة لا يعتقدون أن المهاجرين والأنصار لم تصف نفوسهم لفهم الدين ، ولم تصل إلى أعماق قلوبهم ، وهم يرونهم — كما ترونهم — أئمة الهدى وورثة الرسول » والشباب الواعي لا يسب الصحابة لأنه يراهم « خلاصة الإنسانية ولباب البشر » ولأنه واثق أن الدين الحنيف قام على أكتافهم وشيدت دعائمه ببذل جهودهم المشكورة .

وبعد فإنني لم أرد — بهذا المقال — الدفاع عن الشيعة بل إنما أردتُ أن أقول الحقيقة ، وأدعو المسلمين كافة إلى نبذ أمثال هذه الكتب المفرقة ، فحسبنا هذا الاختلاف أربعة عشر قرناً .

فقد اتحد أقوامٌ من أديان مختلفة وانضموا تحت لواء واحد ، وبقينا نتنازع ، وانقلبنا شيعاً بعد أن كنا كالبنيان المرصوص وأصبنا بما أصبنا .

أليس من العيب علينا ألا نتحد وكلنا يدين بدين محمد !

(كربلاء — العراق) جواد صالح الطعمة

١ — في العروض :

في « الرسالة » الغراء في عددها (٧٢٣) قصيدة حرة سابقة للأستاذ الكبير الشاعر الناثر محمود الخفيف استوقفني فيها ما أردت إثباته للحقيقة .

يقول الأستاذ :

وهاجة شعلتها لا تنى تضيء لا يحبسها حابسُ
من موطن سارت إلى موطن خانقها من موتها يائس
نار سناها ليس في الأعين ملء أبيات النفوس السنا
... ... الخ

والشاهد أن الأستاذ أسس في الشطر الأول من البيت الأول « بألف التأسيس » في كلمة (لا تنى) وأغفله في البيتين التاليين وهو ما لا يجوز في شرعة العروضيين أهل السبق والرتق والأذن الواعية .

هذا ، وللأستاذ الموقر تحية المقدر ، والسلام .

٢ — منذئذ :

عرضت لي هذه الكلمة في مجلة « العالم العربي » ووقفت عندها موقف الشاك في غير إثم ...

فأنا أعرف أن « حينئذ وعندئذ ويومئذ وليلئذ ... » كلها تحدد الزمان حيال أمر مضى أو انقضى .. أما (منذئذ) هذه فأمرها غير أمر أخواتها وإن وقع الشبه ..

« فمنذ » كلمة تحدد الزمان لأمر حدث في الماضي واستمر حتى ساعة الخطاب .. تقول : ما عرفت طعم الكرى منذ رحل أو مذ رحل .

وأما (منذئذ) فأنا أسأل عنها العارفين شاكراً ... والمرء جاهل ما عاش ...

(الزيتون) عدنان

خطأ عروضي شائع :

نشر الأستاذ مختار الوكيل قصيدة في هلال مايو ، بعنوان : « إلى أخي » وهي مهداة لكل أخ في جنوب الوادي ، ومطلع هذه القصيدة :

أخي قد شاء رب الكو نِ أن يُجَمِّع قلبانا

وهذا المطلع كما هو ظاهر من بحر الهزج (مفاعيلن مفاعيلن) (وكذا عجزه !) بينما البيت الذي يليه من مجزوء الوافر وهو :

فأسكننا بوادٍ فا ضَ بالخيرات ألوانا

لأن وجود التفعيلة (مفاعلتن) فيه تكفي لجعله من ذلك البحر .

وأكثر أبيات القصيدة خليط من بحري الهزج ومجزوء الوافر وهو خطأ يقع فيه كثير من الشعراء المحدثين .

(فلسطين) خليل ابراهيم الخطيب

في مقال القفجاق :

وقع في مقال الأستاذ رمزي بك المنشور في العدد الماضي خطأ مطبعي في كتابة هذين الإسمين فنعيد نشرهما مصححين :

كابتشاك Kaptchak

وكيبتشاك Kiptchak

الكُتُب

الحجاج فى الميزان

(تأليف الأستاذ طه عبد المجيد الشيمى)

تاريخنا لم يكتب بعد ، وما هذه الـكتب التى بين أيدينا إلا مصادر له ، على أنها مصادر يصدر عنها الخير والشر ، والصحيح والباطل ، وسبب ذلك أن علماءنا لم يعنوا بنقل التاريخ . عنايتهم بنقل السنة ، ولم يتعبوا أنفسهم في تصحيح إسناده ، وتمحيص رواياته كما أتعبوا أنفسهم فيها - وأن التاريخ دوّن فى عهد العباسيين فـكان فيه من التحامل على بنى أمية خاصة شىء كثير ، لا سيما وأن أكثر الطعن فيهم ينقله مؤلفونا المعاصرون عن مثل المسعودى واليعقوبى وهما شيعيان متهمان ببغض بنى أمية ولا بد من إعادة كتابة هذا التاريخ من جديد .

وهـذا الـكتاب محاولة صالحة لدرس حياة الحجاج دراسة أراد المؤلف أن ينصفه فيها ويدفع عنه تهم أعدائه ، ففعل ولـكنه بالغ فى ذلك حتى كان نظره إليه نظره إلى صديق يمدح لا مؤرخ ينقد ويزن .

والـكتاب للأستاذ طه عبد المجيد الشيمى من علماء الأزهر فى مائة صفحة من القطع الصغير يطلب ممن دار مجلة الإسلام فى شارع محمد على بمصر .

على الطنطاوى

معرض الأدب والتاريخ الاسلامى

(تأليف الأستاذ محمد عبد الغنى حسن)

قال لى صديق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن وهو يقدم إلى كتابه الأخير أكتب عن هذا الـكتاب وانقده ما وسعك النقد. فقلت له لقد قرأت هـذا الـكتاب يوم صدر ، ولم يكن فى عزمى أن أقرأه كله ، ولـكنى ما كدت أقرأ الصفحات الأولى منه حتى مضيت فى قراءته إلى آخره ، لأنى وجدت فيه متعة ولذة وسهولة مع براعة الاستهلال وحسن الانتقال ، ولا أذكر أنى وجدت فيه مآخذ تستوقف النظر . فإن كتبت عنك فلا بد لى من الرجوع مرة ثانية إلى الـكتاب لألتمس فيه المآخذ التماساً ، فلا تـكلفنى شططا .

قال : بل اكتب .

فقلت كما قال أرسطو : أحب أفلاطون وأحب الحق ، ولـكن حبى للحق أعظم .

الـكتاب يقع فى ٢٣٤ صفحة ، وفيه هـذه الموضوعات : قصة الأساطيل الإسلاميـة ، ارتياد جزيرة العرب ، التجارة الإسـلامية على مر العصور ، الوزارة والوزراء فى الإسلام ، مكتبات عربيـة فى الشرق والغرب ، دور التحف العربية ، الرحلات العربية ... ثم أربعة عشر موضوعاً خلاف ما ذكرنا ، وهذا هو السبب الذى جعل المؤلف يصوغ عنوانه « معرض الأدب والتاريخ الإسلامى » .

وأول ما يستوقف القارىء هو هذا العنوان .

هل الإسلامى صـفة للتاريخ أم صفة للأدب والتاريخ . إن كانت الصفة للتاريخ فقط فالعنوان صحيح ، وإن كانت لهما معاً ، فالواجب أن يقال : معرض الأدب والتاريخ الإسلاميين .

ولست حجة فى اللغة العربية وقواعـدها ، ولـكن العقل السليم يقتضى ما ذكرت ، على الرغم من أن اللغة تتسع لـكثير من التخريج والتأويل .

ثم قال فى قصة الأساطيل الإسـلامية : « ومن العجب أن عمر بن الخطاب الفاتح العظيم ، لم يحب ركوب البحر ، بل على الضد من ذلك صرف المسلمين عنه . وكتابه إلى معاوية يؤيد هذا ، فقد أقسم بالله الذى بعث محمـداً بالحق لا يحمل فيه مسلماً أبداً . وذلك حينما اقترح معاوية وألح فى الاقتراح على عمر ركوب البحر وغزو الروم فى حمص .

« وعجيب جـداً أن يكون هذا موقف عمر من البحر وهو الذى دوخ البلاد فتحاً وغزواً ، ولعله أراد أن يركز قوة المسلمين فى البر حتى يتهيأ لهم مع الزمن ركوب البحر » .

وإذا كان الأستاذ عبد الغنى قد اعتمد على هذا النص الموجه إلى معاوية ، فهناك نصوص أخرى تفيد غير هذا المعنى . من ذلك — وأنا أرجع الآن إلى الذاكرة — قول عمر « علموا أولادكم الرماية والسباحة » . والسباحة لا تكون إلا بحراً لا براً ، وقد قال عمر ذلك فى معرض الفروسية وتربية العرب على الحرب والقتال . والذى ينصح بالسباحة لا يمتنع من النصح بركوب البحر .

ومن جهة أخرى لا ينبغى تفسير التاريخ بالنظر إلى وثيقة واحدة . والواقع فى المسألة أن الحروب التى قام بها عمر فى فارس والشام ، ما كانت تقتضى ركوب البحر ، ولو أن الله مد فى حياته ، لفعل كما فعل عثمان بن عفان .

وقال الأستاذ عبد الغنى عند الكلام على « التجارة الإسلامية على مر العصور » ما يأتى « وكانت روح الإسلام المتحرجة من التجارة باقية عند الأمويين ، ولم تترك لهم النازعات السياسية والحزبية مجالا للبيع والشراء . فلما جاء العباسيون تغيرت نظرة الناس إلى الأشياء ، وأصبح التاجر الغنى موضعاً للتبجيل والاحترام » .

ويبدو كذلك أن هذا الحكم سريع لا يستند إلى الواقع من التاريخ . فالقول بأن النازعات السياسية والحزبية لم تترك للأمويين مجالا للبيع والشراء ، قول يصح بالنسبة إلى الدولة العباسية فقد كثرت فيها النازعات السياسية والحزبية .

ومهما يكن من شىء فهذه وجهات من النظر فى تفسير التاريخ ، وإن تجد فى التاريخ تفسيراً واحداً .

ولا أحب فى ختام هذه الكلمة أن أذكر المواطن التى أعجبتنى فى هذا الكتاب ، وأن أنبه عليها ، حتى لا يقال هذه تحية صديق

أحمد فؤاد الأهوانى

١ – نظرة العجلان في أغراض القرآن

(تأليف محمد كمال الخطيب المحامى)

إذا كان القرآن الكريم قد ظل على طول القرون مقصد العلماء يتناولونه من سائر نواحيه بالدراسة والبحث ، فإن هذا الكتاب يلم بناحية فنية من تلك النواحى إذ قصر مؤلفه الفاضل على البحث فى وحدة الموضوع فى السور وتناسب الأغراض بين الآيات ، وعلى هذا تحدث عن جميع سور القرآن مبتدئاً بفاتحة الكتاب حتى بلغ النهاية ، وهذا الذى عناه المؤلف مما تناوله المفسرون ورجال البلاغة ولكن فى مواضع متفرقة وفى مناسبات استطرادية . فكان من الفضل للمؤلف أن جمل من ذلك وحدة شاملة هى موضوع كتابه النافع وإن كان قد اضطر إلى إجمال الكلام إجمالا لا يشبع .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو الأستاذ محمد بك كمال أحمد الخطيب المحامى ومدير مجلة التمدن الإسلامى التى تصدر بدمشق ، وهو معروف بصدق الغيرة الإسلامية ، وليس كتابه هذا إلا مظهراً من مظاهر هذه الغيرة الكريمة ، ولا شك أن كتابه بما له من جلالة الموضوع سيقع عند القراء موقع الرضا والتقدير .

٢ – ألغاز الحياة والموت

(ترجمة الأستاذ على عبد الجليل راضى)

الخلق . الروح . البعث . الذرة . الأثير . الأحلام . الضمير ، هذه الموضوعات التى تتصل بعالم الكون وعالم الإنسان قد حيرت الأفهام وأرهقت عقول العلماء ، على أنها لا تزال مورد التساؤل والاستفهام ، ومبعث الحيرة والارتباك .

ولقد أحسن الأستاذ الفاضل على عبد الجليل راضى إذ عنى بنقل ما كتبه العلماء الإخصائيون فى هذه الموضوعات وما وصلوا فيها من آراء هى نتيجة الدراسة العميقة والخبرة التى تقوم على مدلول التجربة ومنطق العقل ، كما أحسن إذ عنى بتبسيط المسائل المعقدة وشرح الاصطلاحات الغامضة ، فجاء كتابه هذا ثمرة طيبة فى الإفادة بالموضوعات العلمية والتعريف بهذه الناحية التى لا تزال مجهولة من الشبان وطلاب المعرفة .

محمد فهمى عبد اللطيف



المـــــترو

للقصصي النمساوى أيرفين ريجر

كان الحر لافحا خانقاً عند ما توقف شاب وفتاة وسط الساحة الكبيرة فى « محطة الشرق » بباريس يطلقان حولهما نظرات قلقة حائرة. كان من السهل إدراك أنهما أجنبيان قدما إلى باريس من بعيد ، وأنهما فلاحان كما تدل عليه ملابسهما . كانا بولنديين مهاجرين قدما إلى باريس ليبحثا عن عمل فى فرنسا

كان الإعياء يبدو عليهما من أثر الرحلة الطويلة . وكانت الفتاة شاحبة اللون تحيط عينيها الوضاءتين هالات سود . ولكن نظرتها كانت تنم عن الاستسلام المطلق والثقة العمياء بالشاب القوى العريض المنكبين

ووضع الشاب الأمتعة التى كان يحملها كلها وحده . ثم أخرج ببطء من جيبه الداخلى محفظة كبيرة من الجلد وجذب منها ورقة قدمها لأحد المارين الذى ألقى عليها نظرة عاجلة وقال (متروبورت دو كلينيا نكور) ولم يفهم الشاب الأجنبى وسار وراء المار ورفيقته وراءه يستوضحه فأجاب بنفس العبارة

وعرض الشاب نفس الورقة على شيخ قصير القامة يحمل منظارا . ولاحظ العجوز أن الشاب والفتاة أجنبيان يبدو عليهما الوجل والاضطراب فأشار إليهما بمتابعته ففعلا ونزلا وراءه السلم الذى يوصل إلى ممر طويل تحت الأرض كتب على مدخله عبارة (مترو) وبعد بضع خطوات رأيا لافتة كتبت عليها عبارة (مترو بورت دو كلينيانكور)

واشترى العجوز تذكرتين وناولهما للشاب مبتسما وسار فى سبيله .وتقدم (بوجدان) يحمل الأمتعة نحو الممر تتبعه (تيريز). لم يكن السير سهلا فقد كان يخرج من تحت الأرض هواء ساخن يخنقهما ، وكانت الممرات تتقاطع تملؤها الجموع الإنسانية الحاشدة. لذا كان يحدث من لحظة إلى أخرى أن يفصل بين بوجدان وتيريز بالرغم منهما بعض المارين المسرعين فى طريقهم . وكان بوجدان يخترق الجموع بجسمه المارد كباخرة عاتية لا تعبأ بما يعترضها من الأمواج. أما تيريز فكانت تجرى وراءه بقدر ما تستطيع . وعند ما وصلا إلى نهاية السلم وجدا أمامهما أفريزا تمتد تحته قضبان حديدية وسط ظلام دامس . ما أغرب هذا العالم الذى يجرى تحت الأرض ! وعبر بوجدان بابا وتوقف قطار كهربائى يحمل معه صوتاً أشبه بصوت الرعد . ثم فتح أبوابه وألقى إلى خارجه جموعا إنسانية أخرى وفى نفس اللحظة أغلق باب الافريز صاداً عن المرور تيريز التى كانت تجاهد الزحام بكل قواها دون جدوى ؛ فاضطرت أن تنتظر على السلم مع مئات غيرها . وأصابها الذعرحين رأت بوجدان مدفوعا بجهود نافدالصبر يدخل عربة القطار دون أن ينظر حوله . فصرخت صرخة تمزق القلب « بوجدان ! بوجدان ! » وفى نفس الوقت أغلقت جميع أبواب القطار ثم دوى صوت صفارة تبعها فى الحال تحرك القطار الذى انزلق كالسهم فى النفق الأسود المظلم .

بقيت تيريز وحدها يحيط بها جمهور متباين الوجوه ، يتكلم لغة لا تفهمها ، وامتلأ الرصيف بالخلق يضحكون ويمزحون ولا يأبه أحد لها . ووصل قطار جديد يشبه تماما ذلك الذى ركبه بوجدان منذ دقيقتين وفغرت الأبواب أفواهها واندفعت الجموع . ما العمل ؟ هل تنتظر ؟ هل تتبع الجموع فى سيرها ؟ وبغير وعى انساقت تيريز مع الحشود الإنسانية فى طريقها كما فعل بوجدان . وبدأت رحلتها فى أنحاء باريس تحت الأرض دون أن تعرف إلى أين تذهب . كانت واقفة وسط عربة القطار الذى يخترق الظلام نحو المجهول . أين بوجدان ؟ هل هناك أمل فى العثور عليه ؟ وتملكها الخوف . إلى أين يقودها ذلك القطارالذى يجرى فى الظلام كالصاعقة ، ودار رأسها ولم تعد تستطيع احتمال هذا القلق وهذه الوحدة . ووقف القطار فنزلت منه كمجنونة وسارت يدفعها هذا ويرتطم بها ذاك صاعدة سلما لا ينتهى . ثم أنعشها هواء ناعم ووضحت أمامها الوجوه وعادت إليها الحرية . كانت لا تصدق عينيها . أهى فى حلم ؟ ما هذه الأضواء العديدة الصارخة ؟ ما هذه الموسيقى ؟

وجدت نفسها فى شارع على جانبيه منازل عالية . تصطف تحتها المطاعم والمقاهى الزاهية بالأنوار . المكتظة بالناس المرحين فى ثياب العيد .

ماذا يريد منها هذا الشاب ؟ لقد مس ذراعها فرفعت رأسها ونظرت إليه بدهشة أضحكته . إنه يتكلم تلك اللغة الأجنبية . ولاحظت أن صوته ناعم رقيق برغم أنها لم تفهم كلمة واحدة مما تفوه به ، وهزت رأسها وافتر ثغرها عن ابتسامة اعتذار أضاءت وجهها المبلل بالدموع . وأدرك (رونيه) أنها جميلة وهو ينظر إلى خصلة الشعر الذهبية التى تبرز من تحت المنديل الذى يعتص شعرها . وأدرك أنها أجنبية وربما كانت ألمانية . لقد تعلم بضع كلمات ألمانية أثناء اعتقاله مدة الحرب فجمع شتات ذاكرته ووجه إليها عبارة صغيرة آتت ثمارها فقد كانت فى وطنها بولونيا تعيش قرب الحدود الألمانية . ما أسعد أن يجد المرء فى هذه البلدة القريبة شخصاً يركن إليه ويضع فيه ثقته ! لقد فتحت له قلبها وقصت عليه كيف أن والديها لم يقبلا الإنصات إلى حديثها عن بوجدان فهربت معه إلى خارج وطنها ، وكيف أنها قدمت إلى فرنسا تبحث عن عمل . وكيف فقدته فى محطة المترو وهى قاب قوسين أو أدنى من هدفها كان يجب أن تأكل الفتاة شيئاً لتسترد قواها فذهبا إلى أحد المطاعم المحيطة بهما وجلسا فى الشرفة يحيط بهما جمهور كبير يأكل أشهى الطعام ويشرب أفخر الشراب ، كانت تيريز قد جففت دموعها ولكنها كانت خجلة من ملابسها المتواضعة وسط هذا الجمع المتأنق الفاتن ، لقد أخذ بوجدان معه جميع ملابسها ونقودها . كانت تنظر إلى رونيه مذهولة لفرط ظرفه ورقته اللذين لم تر لهما نظيراً . وأراد رونيه أن يهدىء من روعها ويرفه عنها فقال :

هذه هى مونمارتر ، هى من أبهى أحياء باريس واليوم يوم عيد . إنك سعيدة الحظ بوصولك إلى باريس فى هذا اليوم . يوم ١٤ يوليو . انظرى كيف يضحك الناس وكيف يرقصون . إنها ليلة الحرية .

واستحوذت على تيريز عاطفة جديدة . عاطفة حب الحياة . وتملكتها رغبة فى الاستقلال والتحرر لم تشعر طول حياتها بمثلها ، كانت كأنها تريد أن تقبل كل هذه الجماهير التى لا تعرفها.

* * *

ومرت الشهور والأعوام ولم يعد بوجدان جاورونسكى . لقد اشتغل عاملا فى المناجم فى بلدة مارل لى مين بأقليم پادوكاليه ، وكان إذا ما حل المساء وذهب إلى الحانة وأمامه كأس النبيذ قص على رفاقه ذلك الحادث الغريب الذى فقد به تيريز فى المترو يوم وصولها إلى باريس وأن بحثه عنها ذهب كله أدراج الرياح فلم يرها منذ ذلك اليوم . كان يقول :

لقد تبعتنى مغلقة العينين . كانت طوع بنانى . مطلقة الثقة بى . وهذا ما يجعل الأمر مرعباً . لم يكن معها فلس واحد . كان معى كل أوراقها ، وكل ملابسها .

وأجاب عامل كان النبيذ قد أدفأه قليلا :

نعم ! وباريس مدينة خطرة ! لا ترقب الخير لفتاتك !

وتظاهر بوجدان بعدم السماع ثم قال :

لقد جبت كل مكان فى باريس . لم أترك شارعاً ولا ميداناً لم أبحث فيه . وبعد بضعة أيام ابتدأت تنفد نقودى وتتلف أحذيتى ولم يكن لدى أصدقائى عمل يعهدون إلى به . وكانت المشكلة الكبرى مشكلة اللغة وعندئذ جمعت ما تبقى معي من النقود وسافرت إلى مارل مع رفيقين ، وما بقى بعد ذلك تعرفونه .

ومر الزمان وبوجدان يعيش فى مارل لى مين ، يحيا حياة العزلة والهدوء لا يشرب كثيراً ولا يمرح إلا قليلا . كان لا يعبأ بأى شىء منذ فقد تيريز . وإذا كانت ذكراها لا تفارقه وطيفها لا يبرح خياله ، فانه كان يذهب بين وقت وآخر إلى المنزل رقم ١٣ حيث تقيم بائعات اللذة ؛ وإن مغامرته مع (ألين) لا دخل فيها للهوى والغرام لقد كانت سيئة الخلق ولكنها كانت تصلح له جواربه . كان لا يحب غير تيريز . كان يعرف ذلك ويعرف أنه لن يحب غيرها .

ومن أجلها يتحمل هذه الحياة المريرة الخطرة فى المنجم . من أجلها يدخر النقود إذ سوف يراها يوماً من الأيام ولا يريد أن يبدو أمامها بمظهر المتسول . سوف يقدم إليها أوفر الأعذار فقد وهبته كل شىء وأساء هو استخدام ما منحته إياه من ثقة . سيبحث دون ملل أو وهن .

* * *

فى ذلك الوقت كانت تيريز تحيا حياة دعة فى باريس . كانت منذ وقت طويل زوجة رونيه ولها منه طفلان : جورج وأخته

الصغيرة انيتيت . ومع ذلك لم تنس الليلة الرهيبة ، وهل يمكن أن تنساها ؟ هل للسعادة أو الراحة أن تمحو هذه الذكرى الدفينة ؟

كانت تيريز دائماً مع رونيه زوجة أو على الأصح صديقة مخلصة ، ولو أن ذلك لم يكن بالأمر الهين . كان واجباً عليها قبل كل شيء أن تنسى عاداتها وأن تكتسب عادات جديدة وأن تتعلم لغة أجنبية . وسرعان ما أصبحت الفتاة القادمة من صميم الريف باريسية بغير صعوبة . كان ذلك واجباً بعد أن قطع عليها سبيل التقهقر . فقد ولى بوجدان وفصل بينها وبين منزل والديها . فوالداها لن يغتفرا لها هربها . وقريتها تضمر لها السخط والحنق .

وعاشت تيريز نموذجاً للزوجة المقتصدة المدبرة . كانت أكبر عون لزوجها ، تساعده في كل أعماله حتى صارا يأملان بأن يكون لديهما بعد ست سنوات سيارة . وبعد عشرين سنة منزل صغير ذو حديقة تقوم هي بزرع الخضروات فيها كما كانت تفعل في أوائل شبابها قبل تلك الساعة الرهيبة التي جعلت من حياتها حياتين مختلفتين تماماً .

* * *

ومرت عشر سنين منذ هذا الفراق الاضطراري وتيريز تحتفظ دائماً بسر غريب . وفي بعض الأيام كانت تدفعها قوة داخلية إلى الاقتراب — دون أن يعلم أحد — من المكان الذي اختفى فيه صديقها فجأة . كانت تقاوم هذه القوة الجنونية بكثير من الفوز أحياناً . بيد أنها كثيراً ما كانت تضعف وعندئذ تقفز إلى أول سيارة تصادفها مسرعة إلى محطة الشرق كسافرة كاد يفوتها القطار . فتعبر الردهة الواسعة — باحثة في كل مكان على مقربة من السلم المشئوم . وتنتظر صابرة رغم أنها واثقة من أنه سوف لا يأتي أيضاً هذه المرة كما فعل في المرات السابقة . وفجأة تفيق من جنونها وتعود إلى الواقع . فتقفل راجعة إلى منزلها يغمرها الخجل .

وفي ذات ليلة من ليالي الصيف الحارة عاودتها (الأزمة) كما كانت تسميها بصورة قوية جارفة لم تعهد مثلها من قبل . أحست بأنها تكاد تختنق . بأنه ينتظرها . وأنها ليست مخدوعة هذه المرة فعليها أن تهرول إليه . نزلت إلى الشارع وكان الليل قد أسدل أستاره واتجهت إلى محطة المترو المجاورة للمنزل مخترقة الجموع كجنونة . ووصلت إلى محطة الشرق . أين هو ؟ هل تبحث عنه على الأفاريز الداخلية أم عند شباك التذاكر كما فعلت مراراً دون جدوى ؟ وارتبكت عيناها وصمت عليها الرؤية وظلت هكذا نصف ساعة يدفعها المارون من كل جانب وتخنقها أحاديثهم وأنفاسهم الساخنة . وبلغ ذعرها أوجه حين سمعت صوتاً يناديها وشيئاً يمسك بذراعها . كانت أصابع من حديد ! من يكون هذا الوقح ؟ واستدارت بسرعة فرأت بوجدان . هل هو حقاً ؟ وغشى عينيها حجاب قاتم السواد . وصرخت

وعندما عادت إلى رشدها وجدت نفسها مستلقية على أريكة من القطيفة الحمراء . لقد حملها بوجدان إلى مقهى صغير أمام المحطة . كانت القاعة ذات المرايا العديدة خالية من الناس إذ جلسوا جميعاً في الشرفة يستنشقون الهواء الرطب وبلل بوجدان جبهة تيريز بالماء البارد وطلب لها فنجاناً من القهوة . وأخيراً فتحت تيريز عينيها ونظر هو إليها متأملا . وانفرجت شفتاه بحركة عصبية فلمعت أسنانه الكبيرة تحت شاربه . لم تغيره السنون . أما هي فقد أصبحت شيئاً آخر ، لقد أصبحت سيدة وقورة حسنة الهندام .

كان ينظر إليها معجبا بقبعتها المصنوعة من الخوص الأزرق التي تطفر من تحتها خصلة من الشعر الأصفر الذهبي . وبسترتها الجميلة وقفازها الجلدي وجوربها الحريري الشفاف وحذائها اللامع . من الذي اشترى لها أو منحها كل هذه الأشياء الجميلة ؟ وأفسد هذا الخاطر سعادته العظمى برهة من الزمن ولكن السرور غمره ثانية . فقد عادت وعاد كل منهما للآخر من جديد . وليس في الوجود قوة تستطيع أن تفصل بينهما

وكما تحطم الأمواج المكبوتة زمانا طويلا ما يعترضها من سدود ، كذلك انفجر بوجدان شارحاً همومه وآلامه ، واصفا أمله وثقته اللذين لازماه طول عشر سنين .

وبلغ التأثر أقصاه بتيريز وانسابت دمعة على خدها ونظرت إليه فأدركت أنه كبر في العمر لقد فقد شعره بهجته ، ووجهه ما كان عليه من اشراق في الزمن السالف ، ثم يداه المجعدتان ! ما أبغضهما إليها الآن بعد أن كانت فيما مضى ترتعش لمجرد لمساتها . ورغم كل هذا فهاهي تجد تدريجيا على ذلك الوجه الخشن الذي أفلت منه الشباب « بوجدان » الأيام الماضية . تجد القسمات التي

أحبتها والتي ستحبها دائماً .

ومرت الساعات دون أن يشعرا . كانا يضحكان ويتمازحان . وفجأة ارتجفت تيريز وألقت نظرة على ساعتها . لقد بلغت الساعة التاسعة وعاد رونيه إلى المنزل منذ وقت طويل ولا بد أنه قلق لتأخرها . وأحست تيريز بوخز ضميرها حين تذكرت أن (اتيينيت) لا تنام إلا إذا طبعت على شفتيها قبلة الليل . ووقفت دفعة واحدة وقالت :

— الوقت متأخر . هلم بنا !

فأجاب بوجدان بهدوء :

— هيا بنا يا تيريز . تعالي نأخذ أمتعتي من مخزن المحطة فهناك أيضاً كل حاجاتك .

ثم نظر إليها وقال بلهجة الانتصار :

— سنقضي هذه الليلة في باريس القذرة . ولكن غداً صباحاً سنعود في أول قطار إلى وطننا . سأشتري حقلا صغيراً ونعيش في هدوء .

ووقفا على باب المقهى ونظرت إلى يديه المتهكتين وكأنها تريد تقبيلهما وقالت :

— بوجدان إنك لا تزال كما كنت عنيداً ونحن لم نعد صغاراً . ماذا كان يحدث لو لم تكن وجدتني ؟ .

— ما أعجب هذا السؤال ؟ لو لم أكن وجدتك ؟ هذا محال . كنت أنفق كل نقودي أثناء بضعة أيام في هذه المدينة اللعينة .

ورفعت رأسها وقد علاها الرعب ناظرة إلى وجهه المتجهم وقالت :

ثم ما ذا ؟

ثم ما ذا ؟ لا أدرى ، حتى لو أردت العودة إلى المنجم فسوف لا أجد عملا . لقد استغنوا عن جميع العمال البولونيين بسبب الكساد . وأخيراً هناك الفرقة الأجنبية .

وعبرا معاً متشابكي اليدين ميدان المحطة الواسع المزدحم . كان بوجدان يسير متردداً ينقاد وراءها كطفل في هذه المدينة التي يكرهها والتي تحبها هي . باريس التي جعلت منها السنون وطناً لها . باريس التي تحتمل صرامتها وتفهم عظمتها . إن بوجدان هو الشباب والوطن والحب ولكن الأعوام علمتها شيئاً آخر وهو الواجب . فهي تستطيع أن تهجر رونيه ولكن ماذا تصنع بطفليها ؟ إنهما فلذات كبدها .

ووصلا إلى الساحة الكبرى ، إلى نفس المكان الذي قابلا فيه منذ عشر سنوات ذلك السيد العجوز اللطيف المشر بالقرب من سلم المترو . كانت تيريز تندم في تلك اللحظة لأن كلا الرجلين كان طيباً ، فليتها كانت تكره أحدهما . لم يكن أمامها لحظة واحدة لتضيعها . وخاطرت تيريز وكذبت على الرجل الذي تحبه وقالت :

بوجدان ! اذهب وأحضر أمتعتنا . إني أنتظرك هنا ، واستدار بوجدان بسرعة وابتعد بخطواته الواسعة الحاسمة التي كانت تحبها فيه وقت شبابها . كانت تتبعه بنظراتها وفي استطاعتها أن تناديه أو تلحق به . واختفى بوجدان . كان أمامها دقيقتان قبل أن يعود . واقتربت — وكأن قوة خفية تدفعها — من السلم الذي يقود إلى تحت الأرض حيث فقدت بوجدان منذ عشر سنوات ووضعت قدمها على أول درجات السلم واندفعت مع الجموع ممزقة القلب ولكن ثابتة الجنان ، ممزقة الرابطة التي كانت لا تزال تربطها ببوجدان أثناء أحلامها .

ولم تره بعد ذلك أبداً ...